تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين

للدكتور/ عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس [1]

توطئة :

تـــاريخ القرآن مع مختلف أجيال المستشرقين موغل في القدم، فمـــنذ ظهور حركة الاستشراق قبل قرون، كان القرآن الكريم أول هـــدف اتجهـــت إليه جهود هذه الحركة، فتوالت ترجماته إلى شتى الـــلغات الأوروبيـــة، وبعد نقله إلى هذه اللغات ظهرت الحاجة إلى اســـتيعابه بالقدر الذي ييسر للغربيين فهم الدين الذي تعتنقه الأمة التي فشلت الحروب الصليبية في احتوائها وتنصيرها.

وقـــد كتب عن الاستشراق والمستشرقين الكثير من الأدبيات الـــتي عرضت بالبحث والتنقيب لتاريخ الحركة وأغراضها ووسائلها ورجالهـــا والآثـــار التي خلفتها، حتى أصبحت هذه الأدبيات اليوم تستعصي على الحصر.

ولايهمـــنا في هذه الدراسة تراث المستشرقين المتصل بالقرآن الكريم بحد ذاته، أو المتعلق " بعلوم القرآن " كما هو متعارف عليها

---

(1) الأستاذ بكلية الآداب، جامعة القاضي عياض، بني ملال المغرب .

اصـــطلاحا ـ بل غايتها تتبع كتابات هؤلاء عن موضوع " تفسير القـــرآن الكريم " مع إبراز مواقفهم من التراث التفسيري المتراكم ثم تصـــورهم لما يجب أن يكون عليه منهج التفسير حسب معتقداتهم الخاصة.

أما أهمية هذا الموضوع فتظهر بالنظر إلى مسألتين :

أولا : أن موضوع " التفسير في كتابات المستشرقين " قلّ أن يستهوي أحداً ممن بحث في الظاهرة الاستشراقية، فباستقراء مانُشر في نقـــد وتحليل مواقف المستشرقين وآرائهم، بخصوص القرآن نجد بأن الجهـــود تصـــرف لـــلرد والتعقيب على مختلف المطاعن المتكررة والتقليدية التي يرددها المستشرقون عن " طريقة جمع القرآن " وعن " القراءات القرآنية " وعن " ربانية مصدر القرآن " ... ومن النادر أن تلتفت هذه الجهود إلى موضوع التفسير بحد ذاته .

ثانيـــاً : كمـــا تظهـــر أهميـــة الموضوع في كون الكتابات الاستشـــراقية لم تهتم بعلم التفسير إلا في العقود الأخيرة، فلم يسبق لهـــذه الكتابات أن تعرضت لمناهج تفسير القرآن، ولا لنقد التراث التفســـيري أو تقويمه إلا ابتداء من منتصف القرن العشرين لأسباب سيأتي بيانها، فالموضوع تبعاً لذلك جدُّ حديث .

وقد قُسمت هذه الدراسة إلى أربعة مباحث، يسبقها مبحث تمهيدي. خصص البحث الأول للكلام عن المنشورات التي أصدرها المستشرقون وعرضوا فيها آراءهم الخاصة المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى.

والمبحث الثاني : أفرد لجهود المستشرقين المبذولة من أجل هدم ونقض علم التفسير وبخاصة ما تعلق منها بأهل السنة .

والمبحث الثالث : كان استعراضا للطريقة التي يسعى المستشرقون لنشرها حتى تصبح المنهج المعتمد لفهم القرآن وتفسيره .

أما المبحث الأخير فهو مخصص لتقويم كتابات المستشرقين وآرائهم بخصوص علم التفسير، ولم أعرض في هذه الدراسة لتلاميذهم من أبناء المسلمين؛ لأن ذلك يحتاج لموضوع مستقل.

نسأل الله العون والسداد والرشد وأن يعلمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، والله من وراء القصد .

مبحث تمهيدي

إنه مما لا خلاف فيه أن كتابة المستشرق عن القرآن وتفسيره لم يكن في يوم من الأيام بغرض الإيمان به، أو لغاية تقريبه ممن لاينطقون العربية ..، كما لم يكن ذلك بهدف التعريف بدين الإسلام أو نشر ثقافة صحيحة عن هذا الدّين ... وإنما كانت جهود المستشرقين تتجه لغايات أخرى يُتستر عليها بثوب زور يصطلح عليه " بالبحث العلمي " و" الأكاديمي " ...

ولو استقرأنا ما حرّره المستشرقون عن القرآن خلال قرون، وما نشروه عن التفسير خلال العقود الأخيرة، ما كنا نحتاج إلى كبير عناء وبحث، لكي نصل إلى المعتقد الذي ظل يحكم تعاملهم مع الدراسات القرآنية، وهو قناعتهم التقليدية ببشرية كتاب الله تعالى،

والمستشرق ـ وقد أشرب إنكار ربانية القرآن ـ يسعى بدهاء كي يبرهن من خلال كتاباته عن هذا المعتقد، يستوي في ذلك متعصبتهم، ممن يكشفون عن أراجيفهم صراحة، مع أولئك المستشرقين الذين قادهم الدهاء إلى تغليف دعاويهم ببشرية القرآن بشتى الأساليب الملتوية .

المطلب الأول : القرآن الكريم في تصورات المستشرقين

لعل مما تقتضيه الموضوعية العلمية والإنصاف أن نقرر في هذا المطلب مدى التصاق المستشرقين بآرائهم وتصوراهم الذاتية التي يضفوها على مواد كتابتهم، ثم إهم لايرون في عملهم ذاك إخلالا بالموضوعية أو انحرافا عن جادة " البحث العلمي .. "، ومن أبرز مايُظهر ذاتية المستشرقين في مختلف كتاباهم عن الإسلام تلك المواد التي حرروها " للموسوعة الإسلامية " التي صدرت طبعتها الأولى بين ١٩١٣- ١٩٤٢م بثلاث لغات أوربية، وبإمكان القارىء العربي أن يطلع على طائفة من تلك المواد في الأجزاء المترجمة من هذه الموسوعة - خلال عقد الستينات - حيث يلاحظ أن المترجمين اضطروا إلى إدراج تعليقات هامشية على الآراء المنحرفة التي تقصّدها محرروا الموسوعة، وعلى الأخطاء العلمية والجهالات والتهم الواهية التي تضمنتها المواد المحررة من قبل المستشرقين، فعلق على مادة الحديث الشيخ أحمد شاكر رحمه الله كما نجد تعاليق غيره، أمثال مصطفى عبدالرازق وإبراهيم مذكور وغيرهم، وأحيانا يكون التعليق أطول من المادة بكثير.

ونظـــرا لأن هـــذه الموسوعات غدت في السنوات الأخيرة مصـــادر علمية عند الغربيين وعند طائفة من المسلمين فمن الأفضل الـــرجوع إليهـــا أولاً لمعرفة تصورات المستشرقين بخصوص القرآن الكريم .

ففي النشرة الحديثة " لموسوعة الإسلام" الصادرة بالفرنسية عام ١٩٨١م، وأعيد طبعها عام ١٩٨٦م، نجد المستشرق " ويلتش " محرر مادة قرآن يقول في المبحث الذي عنونه بقوله « محمد والقرآن » :

اعتباراً لوجهة نظر أهل السنة (الأرثذوكس)[١]، فإن القرآن تـــلقّاه محمد من الله، وحيا على طريق جبريل، بدون أن يكون فيه دخـــل لأحدهما، لكن تحليل نص القرآن يبين وضعيته المركبة. ففي المقاطع الأولى منه ليس فيها ما يدل على مصدره، وفي مقاطع غيرها لا يوجد ما يدل على ربانية الرسالة، وفي أخرى يظهر أن محمداً هو الـــذي يتكلم، بل تضمن القرآن مقاطع وردت فيها الإشارة إلى إله محمـــد بضمير الغائب ... إن هناك آيات مدنية كثيرة تشعرنا بأن محمـــداً يبحث بفاعلية، من أجل استقاء معلوماته عن اليهود.. وفي هذه المقاطع لايصعب علينا أن نرى محمداً يأخذ قصصا ومعلومات مـــن مصادر متعددة، بخاصة من اليهود والنصارى، ثم يعيد صياغة

---

(١) الأرثوذكـــس مصطلح ارتبط في الآداب اللاتينية بالكنيسة الشرقية، أما دلالته في الـــلغات الغربية فتنصرف إلى صفة الجمود والانغلاق في أمور الدين؛ ومن خلال سياق وروده في كلام المستشرق ويلتش فإنه استعمل كناية عن جمهور أهل السنة من المسلمين .

ذلك في القرآن ..[١] .

أمـا في النشرة الفرنسية " للموسوعة الكونية " الصادرة عام ١٩٩٠م فإننا نجد المستشرق " كلود ثكايو " حين كتب عن تفسير القـرآن: يصرّح في مبحث عقده للكلام عن " تشكيل متن القرآن" بـأن المصحف تشكل من آراء الفقهاء وأحكامهم، خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة، وعبثاً عمد " ثكايو" إلى اقتباس آراء طائفة مـن المستشرقين الذين تبنّوا هذا البهتان، ليخلص في نهاية مبحثه إلى استـنتاج مفاده: أن اختلاف مرويات القراءات التي تلقاها أصحاب محمـد - القراءات الشاذّة والمشهورة - يرجع في أصله إلى الحاجة لإدراج حواشي أو شروح، تتضمن تشريعات قديمة لنص لم يتم إنهاء جمعـه، قبل القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي [٢]، والذي يتتبع كـتابات المستشرقين في هذا الموضوع يقف على تصورهم الخاص الذي دافعوا عنه لتأكيد بشرية مصدر القرآن، لذلك حين كتبوا عن القرآن نظروا إليه على اعتبار أنه أثر أدبي محض، وقد وجد منهم من اعتبره دون التراث الأدبي العربي والعياذ بالله [٣] .

---

(1) A. T Welch Al KUR'AN in encyclopedie de I'slam Tome 5 P404 30 1986, maison neure et larose Paris .

(2) Claude Gilliot, L'exegese du Coran et tes recherches contemporaines in "Encyclopaedia Universalis," corpus 6 P548, Ed 1990, Paris .

(3) voir a ce sujet: Theodor Noldeke, Remarques critiques sur le style et la. du Coran P:5 et 6, maisonneuve, Paris 1953,

وتماشـــياً مـــع هذا التصور الذي ينكر ربانية القرآن، وجدنا المستشـــرقين يدمجـــون دراساتهم عن كتاب الله ضمن مؤلفاتهم عن تـــاريخ الأدب العربي [(١)]، كما وجدناهم وقد استغرقهم البحث في موضوع الترتيب النـــزولي للقرآن [(٢)] .

المطلب الثاني: بداية اهتمام المستشرقين بالتفسير

اتجه المستشرقون إلى تحقيق كتب التفسير، في فترة مبكرة من القـــرن التاســـع عشـــر الميلادي، حيث حقق الألماني " فرايتاج ت ١٨٦١م " أســـرار التأويل وأنوار التنـــزيل «ونشر في ليبزيج عام ١٨٤٥م، وحقـــق الإنجـــليزي وليم ناسوليز ت ١٨٨٩م » تفسير الكشـــاف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" ونشره خلال أربع سنوات ١٨٥٦ ـــ ١٨٥٩ م ..

= traduction G. H. Bousquet .

(١) انظر: على سبيل المثال لا الحصر: ريجبس بلاشير، تاريخ الأدب العربي ج:٢
R. Blachere , Histaire de la literature Arabe deorigines a La Fin du xv siecle de J.c Tome 2 P188 ect.. Librairie d' Amerique et d'ovient, Paris 1980 .

(٢) اشتهر بهذا الموضوع نوادكه ثم بلاشير ووبل وانظر في ذلك :
R. Blachere, Introduction aus coran P248-263, 2: ed 1977, maisonneuve et larose Paris .
وقـــد أدى العجز عن تتبع الترتيب النـــزولي للقرآن بهذا المستشرق إلى أن يعـــتذر عن عجزه بقوله بأن آيات القرآن ظلت محلاً للتقليب والنقل بصفة مستمرة دائمة مما تعذر معه حفظ تاريخ نزولها عن طريق الذاكرة التي كانت الأداة الأساسية للحفاظ على الوحي زمن الرسول - صلى الله عليه وسلم – انظر المرجع السابق ص ٢٦٠ .

ثم انصـرف المستشـرقون بعد ذلك إلى التأليف في التفسير الموضـوعي وأكثروا منه، فنشر الهولندي " فان جنيب " إبراهيم في القـرآن " ضـمن مجلة العالم الإسلامي ١٩١٢م، ونشر " الألماني " أدلف جروهمان " عيسى في القرآن " ضمن الجريدة الشرقية ١٩١٤م، ونشـر رافلين "القانون في القرآن " عام ١٩٢٧م، ونشر جوتين " الصلاة في القرآن " عام ١٩٥٥م ..

أمـا فـيما يتعلق بمناهج المفسرين واتجاهات التفسير – وهو موضـوع اهتمامـنا – فقد اتجه إليه المستشرقون منذ مطلع القرن العشرين، وتوسعت دائرة اهتمامهم به ابتداء من منتصف هذا القرن. فنشـر الإنجـليزي " هورسـفيلد " بحوث جديدة في نظم القرآن وتفسيره" لندن١٩٠٢م، ونشر الفرنسي " كليمان هوار" وهب بن منـبه والـتراث اليهودي النصراني باليمن" ضمن الجريدة الأسيوية باريس، عدد سبتمبر اكتوبر١٩٠٤م، ونشر الألماني " فيشر" " تفسير القرآن" ضمن نشرة الدراسات الشرقية١٩٠٦م، ونشر اجنتس جولد تسـيهر ت ١٩٢١م، مذاهـب التفسير الإسلامي" ونشر ريتشارد هارتمان " تفسير القرآن" في مجلة الدراسات الشرقية ١٩٢٤م، ونشر الإيطـالي جويـدي شرح المعتزلة للقرآن ١٩٢٥م، وكتب " أرثر جفري" أبوعبيدة والقرآن" نشر في عالم الإسلام ١٩٣٨م..

وابـتداء مـن منتصـف القـرن العشرين بدأت دراسات المستشـرقين عـن مناهج واتجاهات التفسير تأخذ بعداً آخر، انطبع

بطرق دراسة التوراة والأناجيل في البيئة الغربية، فأصدر جاك جويمير " تفسير القرآن عند مدرسة المنار" ١٩٥٤م، كما نشر عن " الطنطاوي جوهري وتفسيره الجواهر" ونشر ج. بالجون بلندن " تفسير القرآن في العصـــر الحديـــث" ١٩٦١م، ونشر ب نويبا " التفسير القرآني واللغة الصـــوفية" ١٩٧٠م، ونشرت ترجمة " القرآن : نزوله وتدوينه وترجمته وتـــأثيره " لبلاشـــير١٩٧٤م [١]ونشر ويلتش " القرآن وتفسيره بلندن ١٩٧٦م، ونشـــر ج مـــنوت " مدخل إلى التفسير ١٩٨٢م[٢] ونشر بـــروما ١٩٨٤- ١٩٨٥م ضمن ملفات " الدراسات العربية" مختارات مـــن كتابات المستشرقين عن تفسير القرآن [٣]ونشر كلود ثكايو ضمن النشرة الإنجليزية ١٩٩٠م " للموسوعة الكونية "عن" تفسير القرآن" و" القرآن في ضوء الدراسات المعاصرة [٤] .

وفي العقـــود الـــثلاثة الأخـــيرة بـــدأ يغلب على دراسات المستشرقين للتفسير منحى يرى ضرورة إخضاع تفسير القرآن لمناهج التحليل في العلوم الإنسانية وهكذا في مرحلة أفول الاستشراق انتهى

---

(١) ريجس بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه وترجمته وتأثيره، الطبعة الأولى ١٩٧٤م، دار الكتاب اللبناني بيروت، ترجمة: رضا سعادة؛ والكتاب في أصله جزء من "تاريخ الأدب العربي" القسم الثاني المشار إليه في الإحالة التي قبله .

(2) 6 monnot, Islam: exegese Coranique in annuaire E.P.H.E Tome 91 P: 309-319 annee 1982-1983 .

(3) “Le Commentaire Coranique” in: Etudes Arabes, Dossier 67-68 (1984-1985), Roma .

(4) Encyclopaedia Uinversalis, Gorpus 6, P 543-548.

الحــــال بالمستشـــرقين إلى البحث عن وسائل لإعادة إحياء وإنعاش ماضيهم التاريخي عن طريق المطالبة بتطبيق معطيات المناهج التغريبية عــــلى القـــرآن في أفق البحث عن " تاريخ النص القرآني " ثم إعادة قراءته أو تفسيره من جديد !!! [١] .

المطلب الثالث: أسباب اهتمام المستشرقين بالتفسير ودواعيه

ســـبقت الإشارة إلى أن اهتمام المستشرقين بمناهج المفسرين واتجاهات التفسير هو وليد القرن العشرين : ظهر في مستهله وتوسع في منتصـــفه وكـــثرت الكـــتابة فيه خلال السبعينات وتراجع هذا الاهـــتمام الآن بســـبب هلاك مشاهير أساتذة الدراسات الشرقية بالغـــرب وقلة المهتمين بهذا المجال من الباحثين الأوربيين الناشئين مما ضاعف أزمة الحركة الاستشراقية التي لازال أقطابها الأحياء يبحثون عن وسائل إنعاشها [٢] .

وقد ألمح المستشرق بلاشير في مقدمة أحد كتبه – بما لم يكن يرغب في التصريح به – إلى أن اهتمام المستشرقين بالقرآن : ترجمة ودراسة، كان موجهاً لغاية أساسية هي فهم البيئة الإسلامية ومعرفة العالم الإسلامي[٣]، وهذه المعرفة والفهم هما اللذان سيؤسس عليهما

---

(1) Ibid, P 547.

(٢) انظر في هذا الموضوع :

Claude Caheu et Charles Pellat,les Etudes Arabes et Islamiques, in Journal Asiatique Tome CCLX1, annee 1973 (Paris) P: 89 .

(٣) قــال بلاشـــير في " القرآن: نزوله وتدوينه.." ص ٢٠: "وقد أتيح للعالم

الغــرب سبل السيطرة على الشعوب الإسلامية، لكن بعد عقود من الجهــود المضنية ظهر أن المخططات الغربية أخطأت الطريق، فأراد المستشــرقون تصحيح المسار بما يثبت أقدامهم في حقل الدراسات الإسلامية، ويمكنهم من الإسهام بشكل أو بآخر في توجيه المسلمين، وأدت بهــم " السذاجة " إلى أن يجعلوا أنفسهم أنداداً لأئمة تفسير القــرآن، وظهرت هذه الدعوى بوقاحة في كتاباتهم ابتداء من عقد السبعينات من القرن العشرين .

وإذا كان التيار البروتستانتي في الكنيسة الغربية قد بنى دعوته " للتجديد الديني في أوربا على اعتبار أن فهم الدين والكتاب المقدس ليس وقفاً على رجال الكنيسة وحدهم، وإنما يتجاوزهم إلى غيرهم ممن أوتوا سعة في الأفق ونفاذاً في الإدراك، وعمقا في المعرفة والفكر، فــلماذا يــبقى تفسير القرآن خاصاً بعلماء الإسلام وأئمة الدين من المسلمين ؟!

مــن هنا بدأت تلك الدعوى النشاز، إلى دراسة القرآن دراسة أدبية " كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة، وتلك الدراســة الأدبيــة لأثر عظيم كهذا القرآن هي ما يجب أن يقوم به الدّارسون أولاً، وفاء بحق هذا الكتاب، ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو الانــتفاع بما حوى وشمل، بل هي ما يجب أن يقوم به الدّارسون أولاً

= الأوربي خــلال ثلاثة قرون من الزمن وبفضل هذه التراجم – أي ترجمات القرآن – أن يفكر بأنه قد ملك المفتاح لحديقة سرية كان يحلم بدخولها" .

ولـــو لم تـــنطو صدورهم على عقيدة ما فيه، أو انطوت على نقيض مايردده المسلمون الذين يعدونه كتابهم المقدس [١] .

بمثل هذه الدعوى تمسك المستشرقون المعاصرون، فدعوا إلى تغيـــير أصول تفسير القرآن وقواعده وآدابه، وتبنّوا موقفاً هدمياً من مختلف مصنفات التفسير التي كتبها وجمعها الأئمة الأعلام، ثم وضعوا لأنفسهم منهجاً غريباً لقيطاً أرادوا أن يخضعوا له التفسير، آملين أن يعيـــدوا صياغة دين متجدد، وإسلام متطور، وتفسير للقرآن خاضع للأهواء وسيتم التعرض لمنهجهم في مبحث لاحق [٢] .

المبحث الأول : منشورات المستشرقين المتصلة بدراسة التفسير

نشـــط المستشـــرقون في أعمـــال النشر بدرجة قل نظيرها،

(١) أمـــين الخـــولي، " التفسير" مقال نشر تعليقاً على الترجمة العربية " لدائرة المعارف الإسلامية " ج٥ ص ٣٦٦، وقد نشر هذا المقال في كتاب للخولي بعـــنوان "مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب "، الطبعة الأولى دار المعرفة ١٩٦١م، ونشر أيضاً في رسالة مستقلة عن "التفسير: معالم حياته منهجه اليوم " .

(٢) قال هاملتون جب في مقال نشره عام ١٩٣٢م موجهاً المستشرقين في هذا المـــنهج: "لكن الأجيال الإسلامية المعاصرة تحتاج إلى أكثر من هذا القول، فيجب أن نثبت لها أن لاشيء في القرآن من التناقض ولا من الباطل..، وأن الفكـــر العلمي أو الروائي التاريخي المعاصر لم يكتشف شيئاً يعارض سلطة القرآن وأوامره، لنصل بها إلى نتيجة لا نبلغها إلا إذا اعتمدنا على القول بأنه من كلام الله، وبأنه لا يجوز الخوض فيه قليلاً أو كثيراً..، فالمطلوب أساساً هـــو التأويل.." هـــ جب، الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ١٢٦، نشر مكتبة الحياة ١٩٥٤م، ترجمة كامل سليمان .

وأســتطيع أن أقــرر أن المجال الذي نجح فيه هؤلاء ليس هو مجال الــبحث العلمي ولا هو ميدان التكوين الأكاديمي و لم ينجحوا أيضا في مجــال الاختراق الثقافي والعقدي ...، إنما نجحوا في ميدان النشر والتوزيع على نطاق واسع .

ونظــراً للإمكانيــات الماديــة والمعــنوية، التي ترصد لهم وللأكاديميات والمجامع، التي يعملون في إطارها فلا زالوا يستطيعون نشر أو إعادة نشر كتاباتهم، وأيضا ترجمتها سواء كان ذلك بالغرب أو بالبلاد الإسلامية نفسها [(1)] .

وبخصــوص كــتاباتهم عن التفسير فقد كانت متنوعة فهناك التأليف المستقل، وهناك الأبحاث والمقالات التي تقدم للمؤتمرات أو تنشر ضمن مختلف الدّوريات العالمية، وأخيراً هناك تلك المواد المحررة للموسوعات ودائرة المعارف .

المطلب الأول: التفسير في التآليف الفردية الخاصة

وتشمل هذه التآليف نوعين من الكتابات :

---

(١) وممــا لــه أكثر من دلالة أن نجد "كتاب تراث الإسلام" " The Legacy of Islam " المنشــور في إكســفورد بالإنجليزية عام ١٩٧٤م لجوزيف شاخت وكليفورت بوزورت ترجم إلى العربية وأصدره المجلس الوطني للثقافة بالكويت في ثلاثــة أجزاء عام ١٩٧٨م، ثم أعيد طبعه عام ١٩٨٨م، ليطبعه المجلس مرة ثالثة في جزئين عام ١٩٩٨م.
ومــن هــذا القبيل أيضاً مجلة "هسبريس " " HESPERIS " التي أشرف المستشرقون الفرنسيون على إصدارها بالمغرب منذ عام ١٩٢١م، أعيد طبع أعدادهــا التي نفذت، حيث تم نشرها في عقد الثمانينات ضمن سلسلة من المجلدات .

الأول : يتضـــمن الرســـائل والأطروحات التي تقدم للجامعات من أجـــل نيـــل الدرجات العلمية، والكتابات التي يؤلفها المستشرقون باعتبارها " أبحاثا" ودراسات ينشرونها ضمن أنشطتهم المختلفة .

والـــنوع الـــثاني : هو الأهم المؤلفات التي أصبحت مصادر لأخذ المعـــرفة في موضـــوع التفســـير رغم ما احتوته من أوهام وأضاليل وأحيانـــاً يـــتجاوز الأمر البيئة الغربية، لنجد لهذه المؤلفات مصداقية عـــلمية حـــتى في العـــالم الإســـلامي، فتطبع هذه الكتب وتترجم ويستدعى أصحابها، ليحاضروا في المؤسسات العلمية التابعة للبلدان الإســـلامية، وحتى في حالة وفاهم، نجد من المؤسسات الثقافية من يسهر على ترويج هذا التراث ...

ومـــن أشـــهر كتابات المستشرقين عن التفسير كتاب جولد تســـيهر ت ١٩٢١م عن " مذاهب التفسير الإسلامي" الذي ترجم إلى العربية مرتين الأولى: قام بها د. علي حسن عبدالقادر، والثانية: أنجـــزها د. عبدالحليم النجار عام ١٩٥٤م، وقد كان هذا الكتاب ولازال من المراجع الرئيسية، التي يأخذ منها الدارسون رغم تعصب مؤلفـــه ضـــد الإسلام والقرآن، ورغـم الكثير من الأخطاء العلمية والجهـــالات الـــتي تعمدها المؤلف [١]، فضلاً عن ذلك نجد لكتاب "مذاهـــب التفســـير" مكانة فريدة في أوساط المستشرقين، كما نجد

---

(١) كتب الشيخ أحمد شاكر ت ١٣٧٧هـــ، عن ذلك مقالة نقدية نشرت في مجلة المقتطف عدد دجنبر ١٩٤٤م ص ٤٦١-٤٦٣، كما عرض للموضوع في تعليقه على مادة "حديث" ضمن دائرة المعارف الإسلامية ج٧ ص ٣٣٣، ٣٣٤ .

لصاحبه سمعة علمية مصطنعة، حتى أننا نصادف المستشرق جوينبول محـــرر مـــادة (حديث) في " دائرة المعارف الإسلامية"، يعتبر العلم مديناً ديناً كبيراً لما كتبه جولد تسيهر [1]، ونجد المستشرق كاراديفو محرر مادة (تفسير) في نفس الموسوعة يستظهر بأقواله [2]، ولازالت افتراضـــاته الخاطئة في هذا الكتاب تؤخذ على أنها مسلمات علمية حتى الآن .

بعـــد كـــتاب تســـهير تأتي في الدرجة الثانية تآليف المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير ت ١٩٧٣م، وقد اكتسبت كتابات هذا الرجل عن التفسير قيمتها وسط دوائر المستشرقين والمتغربين لأسباب ثلاثة :

الأول: طـــول مدة إقامته في العالم الإسلامي، وبخاصة في المغرب ثم تدريسه هناك .

الـــثاني: كثرة تلاميذه من أبناء المسلمين في المشرق والمغرب، حيث أشـــرف عـــلى عدد من الرسائل التي أنجزها الطلبة العرب بالجامعة الفرنسية ..

السبب الثالث الذي أضفى عليه المصداقية العلمية: دخوله للمجامع العـــلمية العربية. وقد اشتهر من كتاباته عن القرآن مؤلف " مدخل إلى القرآن " بالفرنسية، لكن أوسع ما ألفه عن التفسير تلك المباحث التي كتبها ضمن الجزء الثاني من " تاريخ الأدب العربي" التي استلت

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج٧ ص ٣٣٣ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج٥ ص ٣٤٧ .

مــن الكـــتاب الأصلي، ونقلها إلى العربية: رضا سعادة وصدرت طبعتها الأولى عام ١٩٧٤م، وهي نفسها المنشورة ضمن " الموسوعة الكونية" في المبحث الأول لمادة (قرآن) [١] .

المطلب الثاني: التفسير في الموسوعات الاستشراقية

تقـــوم فكرة الموسوعات على جمع مختلف المعلومات المتعلقة بمجـــال معين كالآداب أو التاريخ أو الطب .. ثم ترتيب مواد ما تم جمعه، والقيام بتحرير تلك المواد مع مراعاة التركيز والاختزال ودون الإخلال بما تتطلبه الموسوعة والإلمام بالمادة .

وقـــد ظهـــرت فكرة كتابة " موسوعة الإسلام " في مؤتمر المستشـــرقين العاشـــر بسويسرا عام ١٨٩٤م، لكن لم يتم البدء في إصدار أجزاء هذه الموسوعة إلا في ١٩١٣م، وتوالى صدور أجزائها حتى سنة١٩٤٢م حيث اكتملت بثلاث لغات هي الفرنسية والألمانية والإنجـــليزية، وفي المؤتمـــر الحادي والعشرين للمستشرقين - باريس ١٩٤٨م - تم إقرار مشروع الطبعة الثانية المنقحة لهذه الموسوعة [٢]، وقد وجدت هذه الموسوعة رواجا في العقود الأخيرة، فصدرت الطبعة الفرنسية المنقحة في الستينات وأُعيد طبعها عام ١٩٨١م ثم بعد ذلك عام ١٩٨٦م، هذا دون عدّ ما صدر بالإنجليزية .

---

(1) R.Blachere, Du message au “fait Coranique “in Ency. universalis” Corpus 6 P: 540 - 543 .

(٢) د. محمـــود المقـــداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ص ٢٠٠-٢٠٢، ضمن سلسلة "عالم المعرفة" عدد ١٦٧، الكويت ١٤١٣هـــ .

أمـــا الـــترجمة العـــربية لهذه الموسوعة فقد ارتبطت بإبراهيم خورشيد، وأحمد الشنشاوي وعبدالحميد يونس، حيث اعتمدوا فيها عـــلى مـــواد الطبعة الأولى، فابتدأ صدور الأجزاء التي ترجموها مع التعـــليق عليها عام ١٩٣٣م إلى غاية ١٩٦٥م وتوقفوا عند حرف الطـــاء كمـــا هـــو واضح في الموسوعة التي نشرت بعنوان " دائرة المعارف الإسلامية " فضلاً عن هذه الموسوعة المختصة بالإسلام، نجد المستشـــرقين يســـتأثرون بتحرير المواد المتعلقة بالإسلام وعلومه في مختلف الموسوعات العامة التي تصدر بشتى اللغات في مختلف الدول، وأشهر هذه الموسوعات :

١- موسوعة " الديانات والأخلاق "

٢- الموسوعة الكونية " .

أما عن موضوع " التفسير " في هذه الموسوعات المختلفة، فقد حـــرر مادتـــه في الموسوعة الاستشراقية الأولى (١٩١٣- ١٩٤٢) المستشرق كاراديفو، وماكتبه عن التفسير جد تافه، كان فيه عالة على المستشـــرقين الحاقدين جولد تسهير ولامنس، وقد ترجمت هذه المادة ضمن " دائرة المعارف الإسلامية " [1] ومعها تعليق أمين الخولي .

أما في الطبعة الثانية المنقحة من هذه الموسوعة - صدر الجزء الأول منها ١٩٦٠ - فقد لجأ المستشرقون إلى التوسع في المواد إلى درجـــة أن مـــادة (قـــرآن) التي أسند تحريرها للمستشرق ويلتش

---

(١) كراديفو، مادة تفسير، دائرة المعارف الإسلامية ج٥ ص ٣٤٦-٣٤٨ .

تضمنت تسعة فصول بمباحثها وجاءت في إحدى وثلاثين صفحة من القطـــع الكـــبير المكتوب بخطوط دقيقة [١]، وهذا دون الكلام عن الذيول المرفقة بالمادة التي حررها مستشرق آخر ...

أمـــا في " موســـوعة الديانـــات والأخلاق" فقد حرر مادة "تفســـير" الألمـــاني شلاير ماخر، حيث كتب عن المادة من منظور وضعي، إذ لافرق عنده بين تفسير القرآن، والأناجيل والتوراة وسائر النصـــوص الأدبيـــة الصرف [٢]، وقد اقتبس منه أمين الخولي هذا التصور، وظهر ذلك جلياً فيما حرره الخولي تعليقاً على كارادیفو في " دائرة المعارف الإسلامية " [٣].

أمـــا في " الموسوعة الكونية" الصادرة بالإنجليزية، فنجد مادة (قـــرآن) في الطـــبعة المترجمة إلى الفرنسية عام ١٩٩٠م مقسمة إلى مـــباحث ثلاثة: **الأول** منها: عن " رسالة القرآن من تحرير بلاشير، **والمبحث الثاني**: عن تاريخ التفسير، **والثالث**: عن القرآن والدراسات المعاصرة، وكلاهما من تحرير كلود كايو، ولا نجد في المادة كلها إلا امتداداً لذلك التراث الاستشراقي القاصر علمياً المتعصب دينياً.

هـــذا وبما أن عصر الموسوعات قارب على الانتهاء، واحتل

---

(1) A.T. Welch, Al KUR'AN, In encyclopedie de L'Islam Tome 5,P: 401 -431 .

(٢) انظـــر في الموضوع: ماكتبه د. السيد أحمد خليل، دراسات عن القرآن ص ١٣٧-١٤٣، طبعة ١٩٦٩م، دار النهضة العربية بيروت .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج٥ ص ٣٤٨-٣٧٤ .

مكانه مايصطلح عليه " بأطلس" العلوم المختلفة، فقد وجدنا هؤلاء المستشرقين يتسابقون لتحرير مواد أطلس الديانات، بخاصة وأن هذا التصـــنيف الجديد يتم نقله في أقراص الحاسوب، بالإضافة إلى كونه مؤهلاً ليدخل ضمن شبكات المعلومات، عبر برامج الإنترنت وما قد يجد بعد عصر الإنترنت [١] .

المطلب الثالث : التفسير في المجلات والدوريات الاستشراقية

دأب المستشـــرقون على كتابة المقالات والدراسات في شتى المناســـبات: كالمشاركة في الندوات أو المؤتمرات، أو الأيام الدراسية أو في ذكـــرى تأبين أحدهم، أو في الاحتفال بمؤسساهم وجمعياهم، وقد تكون هذه المشاركة عبارة عن ورقة بحث أو محاضرة أو مداخلة مرتجلة، وبسبب حرص المستشرقين على توثيق أعمالهم ، فقد كانت جميع أعمالهم تأخذ طريقها إلى النشر بمجرد تحريرها.

---

(١) تـــتألف شبكة الأنترنت – اليوم – من تجمع لشبكات الكومبيوتر، وتتوزع وحـــدات الخدمـــة المرتبطة بالشبكة في مختلف أنحاء العالم، ويستخدم الأفراد جهاز الحاسوب الشخصي للدخول إلى هذا النظام عبر شبكة الهاتف؛ وتظهر أهمية وخطورة هذا النظام في كونه وسيلة فعالة للنشر، وبإمكان أي مستشرق – أو غـــيره – أن ينشـــر أفكـــاره عبر الأنترنت عن طريق طبع المادة على الحاسوب وبعثها بالبريد الإلكتروني إلى أي موقع على الشبكة، إضافة لما سبق فـــإن الموســـوعات المختلفة صارت توزع على الأقراص المدمجة (CD Rom) بتكاليف منخفضة – مقارنة مع الموسوعات المطبوعة – وقد كان لاعتماد هذه الأنظمة على اللغة الأجنبية بالخصوص مناسبة لترويج تراث المستشرقين عن الإسلام في العالم كله بشتى اللغات وبدون تكاليف تذكر .

ولعل أهم وسائل النشر التي استفادت منها الحركة الاستشراقية : الجرائد والمجلات والنشرات.

فالجرائد الاستشراقية قد تصدر كل ثلاثة أشهر، ويشكل كل أربعة أعداد منها مجلداً، أما المجلات فهي مطبوعات دورية مختصة بمجال محدد من مجالات الدراسة، وقد تكون المجلة شهرية أو فصلية أو نصف سنوية أو حولية حسب انتظام صدور أعدادها. أما النشرات فهي مطبوعات، الغرض الأساسي منها هو التعريف بالمعهد أو المؤسسة أو الجمعية أو النشاط ...

لكن البحث عن موضوع معين في هذه المطبوعات ليس عملاً سهلاً ميسوراً، لكثرة هذه المطبوعات واختلاف لغات كتابتها وندرة العديد منها، إلا في المراكز العلمية المجهزة، هذا فضلاً عن كون الفهارس التي أحدثت لهذه المطبوعات لا تفي دائما بالغرض لتشعب الموضوعات وتداخل تخصصاها...

وبالنسبة لموضوع التفسير فإن أول ما يجب على الباحث الحرص عليه في هذه المطبوعات: أن يلم أولاً بأسماء المستشرقين الذين اهتموا بالموضوع، فأحيانا يكون عنوان المقالة خادعاً، وأعطي مثالين لذلك اعتماداً على ما نشر ضمن " الجريدة الأسيوية " التي تصدر بباريس منذ ١٨٢٢م حتى يومنا الراهن .

فمن الجزء الرابع من السلسلة العاشرة من الجريدة الأسيوية عدد " سبتمبر" اكتوبر ١٩٠٤م نشر كليمان هوار مقالته المطولة عن

" وهـــب بـــن منبه والتراث اليهودي النصراني باليمن" وهذه المقالة تُعرف بالتفسير، وخلص صاحبها في خاتمته إلى توجيه الطعن " لجامع البيان " لابن جرير الطبري [1].

وفي نفـــس الجريدة عدد ٢٦١(Celxi) الصادر ١٩٧٣م نجد مقالـــة عـــنوانها " الدراسات العربية والإسلامية" قدمها في الأصل: كـــلود كـــاهن وشارل بيلا لأحد الملتقيات الاستشراقية، وليس في المقالـــة شيئا عن الدراسات الإسلامية، أو عن التفسير، لأن محرريها يهتمان بمجال الأدب فحسب [2].

واعتـــباراً لمـــا يقتضـــيه المـــنهج من عرض تحليلي لكتابات المستشـــرقين عـــن تفســـير القـــرآن، فسيخصص المبحثان التاليان لتصورات المستشرقين لهذا العلم.

فـــنعرض أولاً: لمواقفهم من التراث التفسيري المتراكم حيث أنهم اتجهوا إلى نقض هذا التراث، ثم نعرض ثانياً: لدعوة متأخريهم

(1) Clement Huart, Wahb ben monabbih et la tradition Judeo-Chretienne au Yemen, In “Journal Asiatique,” 10: Serie, Tome 4,Septembre-Octobre 1904, imprimerie nationale Paris .

(٢) كـــان كـــلود كاهن يكتب في موضوع التاريخ الاجتماعي للإسلام، ومن أشـــهر منشـــوراته: "تاريخ العرب والشعوب الإسلامية".؛ أما شارل بيلا فيكتب عن الأدب، حضر الدكتوراة في "الوسط البصري وتكوين الجاحظ" وكتب عن "تاريخ الأدب العربي"، ونشر للجاحظ "رسالة التربيع والتدوير" مع مقدمة بالفرنسية وترجم له "البخلاء" و "التاج في أخلاق الملوك" .

إلى مـــا اعتـــبروه منهجاً علمياً جديداً لتفسير القرآن، يعتمد على معطيات العلوم الإنسانية كما هي بالغرب. تبعاً لذلك فإن تصورات المستشرقين وآراءهم في علم التفسير تشمل جانبين :

الأول: جانب هدمي يقصد إلى نقض علم التفسير جملة وتفصيلا.

الـــثاني: إنشـــائي أو تأسيســـي يقصد إلى ابتداع طريقة جديدة في التفســـير، تتناســـب مـــع مؤهلاتهـــم المعرفية، وأهدافهم من وراء الدراسات الإسلامية.

المبحث الثاني : موقف المستشرقين من التراث التفسيري المتراكم

تحكمـــت في توجيه كتابات المستشرقين عن مختلف التفاسير عـــدة عوامـــل، فهناك أولاً تعاطفهم مع مختلف الفرق المنحرفة التي شـــهدها تـــاريخ الفكر الإسلامي، ثم هناك معاداة جمهورهم لأهل الســـنة والجماعـــة ولأئمة الإسلام الذين ينتسبون إليهم، ثم هناك تعصبهم الأعمى لنصرانيتهم أو يهوديتهم، هذا فضلاً عن عامل آخر لا يقـــل أهميـــة هو غلبة الجهل باللسان على الأغلبية الساحقة من دارسي القرآن العربي المبين منهم .

المطلب الأول: وقوف مشاهير المستشرقين عند التفاسير المعاصرة

ســـبقت الإشـــارة إلى أن اهتمام المستشرقين بدراسة مناهج التفســـير واتجاهـــات المفســـرين توسع في النصف الثاني من القرن العشـــرين، أمـــا قبل ذلك فمن النادر أن نجد مستشرقاً يلتفت لهذا الموضـــوع أو يفرده بالكتابة خلا اجنتس جولد تسهير ت ١٩٢١م

وبعض من اقتبس كلامه من المستشرقين .

وحـــين نرجع إلى " مذاهب التفسير الإسلامي" لجولد تسيهر نجـــده خصص المبحث الأول عن " المرحلة الأولى للتفسير" للكلام عن القراءات والطعن فيها، وجمع طائفة من المغالطات بشأنها، لينتقل بعـــد ذلـــك إلى المبحث الثاني عن " التفسير بالمأثور" فلم يأت فيه بشيء على الإطلاق؛ لأن غرضه هدم هذا التفسير لطغيان الروايات الواهية عليه، ثم انخرط جولد تسيهر في تفصيل الكلام عن الاتجاهات المـــنحرفة في التفســـير، ويظهـــر من خلال اهتمامه بها وتوسعه في دراستها أنها كانت مبتغاه الذي لأجله ألف كتابه.

فأفـــرد فصـــلا لما اصطلح عليه " التفسير في ضوء العقيدة " أدرج فيـــه الكـــلام عـــن تفسير المعتزلة - أهل الرأي - ثم تفاسير الباطنية قديماً وحديثاً، سواء كان هؤلاء الباطنية من غلاة المنسوبين إلى التشيع (الإسماعيلية) أو من " ملاحدة المتصوّفة " ...

ثم خصـــص فصـــلا آخر لما أسماه " التفسير في ضوء الفرق الدينية" تكلم فيه عن التفسير عند الشيعة الإمامية والإسماعيلية، وأتى فيه بافتراءات كثيرة وافتراضات ساذجة، وخلط بين مقالات وآراء الإمامية والإسماعيلية بطريقة ماكرة ...

أمـــا الفصل الأخير فقد عنونه بـــ " التفسير في ضوء التمدن الإســـلامي "، وفيـــه توسع في الكلام عن التفسير عند محمد عبده وتلاميذه الذين سماهم " المعتزلة المحدثين "، والذي يقرأ هذا الفصل

يرى كيف تتبع تسيهر في صبر وأناة مختلف القضايا التي خالفت فيها مدرسة المنار جمهور أهل السنة في الاعتقاد والفروع، كما يستشف القارئ تلك العاطفة التي غلبت على هذا المستشرق وهو يحرر هذه الفصـــل، بل إن الملاحظ أن تفسير القرآن الحكيم (المنار) هو أكثر كتب التفسير وروداً في إحالات جولد تسيهر، هذه الإحالات التي تشمل أجزاء تفسير المنار من الأول حتى الرابع عشر حسب الطبعة القديمة .

ولما جاء المستشرقون المتأخرون وجدوا جولد تسيهر مهّد لهم طـــريق " الـــبحث والدراســـة "، ووجدوا في " مذاهب التفسير الإسلامي" دليلاً يتبعونه في مجال كتاباهم عن التفسير، لكنهم زهدوا في الـــتراث التفسيري القديم، الذي اكتفى منه جولد تسيهر بأسماء الكـــتب إذ لم يبحث عن غير ذلك، وتوقف هؤلاء المتأخرون عند التفاسير المعاصرة التي لم يعجبهم منها إلا تراث " مدرسة المنار"

فعمـــد المستشـــرق جـــاك جويمـــير (J.JOMIER) من رهبان الدومـــنيكان إلى تسجيل موضوع أطروحته للدكتوراة في السربون في موضـــوع " مدرســـة محمد عبده في تفسير القرآن" وبعد ذلك نشر بباريس عام ١٩٥٤م كتابا عن " تفسير القرآن عند مدرسة المنار" [1]، ثم نشـــر عـــام ١٩٥٨م دراســـة عن " الطنطاوي جوهري وتفسيره

(1) J.JOMIER, Le commentaire coranique du Manar, G.P, maisonneuve Paris 1954 .

الجواهر" ضمن مختارات معهد الدومنيكان للدراسات الشرقية .

وبعـــد جويمـــير جاء المستشرق ج. بالجون فألف بالإنجليزية كـــتابه عـــن " تفسير القرآن في العصر الحديث" وصدر الكتاب في ليدن عام ١٩٦١م، وهذا المؤلف في جوهره عبارة عن بحث وصفي لما اعتبره الكاتب " مناهج التفسير في زماننا الراهن" [1] والذي يبدو مـــن تتبع هذه الكتابات الاستشراقية أن أصحابها كان يعوزهم فهم الـــلغة العـــربية التي ألفت بها التفاسير السابقة، ففضلوا تبعاً لذلك الاحـــتماء بالتفاســـير المعاصرة، لسهولة أسلوبها ووضوح عباراتها، والخلاصـــة التي يمكن للمتتبع الانتهاء إليها هي أن المستشرقين حتى الآن عجـــزوا عـــن التعامل مع مناهج المفسرين المتقدمين، فاختاروا الوقوف عند تفاسير بعض المعاصرين التي لم يستطيعوا إلاّ وصفها.

المطلب الثاني : إعلاء شأن التراث التفسيري المنحرف

كـــان كتاب " مذاهب التفسير الإسلامي " بعد صدوره عن مكتبة بريل في ليدن عام١٩٢٠م قد وضع للمستشرقين أصول المنهج

---

(1) J.M.s. Baljon, “Modern Muslim Koran interpretation 1880 -1960” .

وانظر في نفس الموضوع :

J.J. G Jansen, “The interpretation of The Koran in modern Egypt,” to eyed 1974 .

هـــذا وقد عرض لطائفة من هذه الكتابات الاستشراقية د. عفت الشرقاوي في " الفكر الديني في مواجهة العصر " .

والطــريقة التي يجب أن يتعاملوا بها مع التراث التفسيري؛ واعتباراً لشخصية جولد تسيهر وأسبقية كتابه فقد أضحى " مذاهب التفسير " مصدراً للدراسات الاستشراقية عن القرآن وتفسيره ...، فهو منهل المستشـــرقين المتأخرين يقتبسون منه المادة ويقتفون أثره في المنهج، والغـــريب أنه رغم فقر الكتاب ومحدودية قيمته العلمية - إذا نظرنا إليـــه مـــن خلال التراث التفسيري الذي بين أيدينا اليوم - ورغم إغـــراقه في التعصـــب ...، إلا أن هـــذا الكتاب ظل يلهم مختلف المستشـــرقين الذين يكتبون عن التفسير حتى في نهاية القرن العشرين للميلاد (١) .

وحين نرجع إلى هذا المؤلف الذي تجاوزه الزمن - على الأقل مـــن الناحية العلمية الصرف - نجده - كما سلف - يظهر اهتماماً وتعاطفـــاً واضحاً مع مختلف الاتجاهات المنحرفة، التي شهدها تاريخ تفسير القرآن الكريم .

والمطـــلع على فهرس موضوعات الكتاب - وإن لم يقرأه - يـــرى كيـــف أن التفسير بالمأثور لم يستغرق كله إلا سبعاً وأربعين صـــفحة، كلها طعن في هذا الاتجاه، في حين أن تفسير المبتدعة من معتزلة وباطنية وشيعة - رغم محدودية هذا التراث - استغرق مائتين وسبع عشرة صفحة .

---

(١) مـــنهم عـــلى سبيل المثال كلود كايو الذي حرر آخر مادة عن "التفسير" للموسوعة الكونية .

والسـبب في اهتمام تسيهر بهذا التراث المنحرف، يرجع إلى مايراه من أن تفسير هذه الطوائف خضع للتأثير الأجنبي، بخاصة تأثير عقائد أهل الكتاب .

ففـي معرض كلامه عن تفسير المعتزلة، قال مشخِّصاً ذلك التأثير : ((وقـد أمكن في وقت مبكر إثبات أن الأنظار والمسائل العقدية التي كانت محل الاعتبار في القرنين الأولين عند علماء الكلام الإسـلاميين، قد برزت تحت تأثير النشاط العقدي داخل الكنائس والفرق المسيحية الشرقية، لاسيما في سوريا التي تعد المرحلة الأولى في طريق هذا الاحتكاك))[1] .

وقـال جولـد تسيهر في كلامه عن الباطنية : ((والحق أن مـبادىء ونظـريات المتصـوفة وإخوان الصفا مشتركة بين كلتا الدائـرتين، ومشـتركة كذلك من بعض الجوانب. والوسائل التي يجعلون الإنسان بواسطتها يطمح إلى هدف الكمال أو الخبر الأعلى ... وإنمـا كان ذلك مشتركا بينهما؛ لأن جذورهما جميعا تمتد إلى الإفلاطونية المحدثة وإلى الغنوصية ..[2] .

امـتدادا لما درج عليه جولد تسيهر من إعطاء مختلف تفاسير المبتدعة أهمية واضحة؛ وجدنا المستشرقين من بعده في سبيل إدراج

---

(١) تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي ص ١٧١، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ، دار إقرأ بيروت، ترجمة د. عبدالحليم النجار .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

هذا التراث المنحرف الباطل ضمن تاريخ التفسير، ثم تقديمه على أنه النموذج الأمثل لتفسير القرآن [١] وفي سبيل تلك الغاية وجدنا الدهاء الاستشراقي الماكر بلغ أَوجَهُ مع المستشرق بلاشير الذي أجهد نفسه كثيراً من أجل إثبات ما رآه أصلاً من أصول التفسير، قرر فيه ((أن التفســير في مبدئه بالذات يقر بالقيمة النسبية للشروحات، خاصة عــندما تتعلق هذه الشروحات بمقاطع شديدة الغموض، ولقد قبلت التفسيرات المتعددة، كما قبلت القراءات المتعددة، شرط أن تنال هذه التفســيرات تأييد الإجماع. هنا نجد موقفاً فكرياً، يمدنا بمفاهيم غير متــناهية لفهم القرآن في ضوء التطور التاريخي"[٢] وانطلاقاً من هذه الرغبة الجامحة في إعلاء التراث التفسيري المنحرف اهتمت دراسات المستشرقين ببعث آثار المبتدعة المنسوبة إلى التفسير، وليس من قبيل المصــادفة أن يكــتب المستشرق جويدي ت ١٩٤٦م عن " شرح المعــتزلــة للقــرآن "[٣] ويكتب نوبيا عن " التفسير القرآني واللغة

---

(١) قــال تسيهر في امتداح منهج المعتزلة وانحرافاتهم في التفسير وردهم للأخبار الصحيحة: "..والواقع أن المعتزلة يسلكون طريقهم الخاص في دائرة التفسير المتصــل بالعقائد، فهم لم يبالوا هنا أن يزيلوا من طريقهم ركاماً كبيراً من التصــورات الشــعبية، والآراء المــروية، التي لا تتفق مع تصورهم المستنير للألوهية "مذاهب التفسير ص ١٣٥.

(٢) بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه.. ص ١١٣ .

(٣) لم يقصد المستشرقون في كتابتهم عن تفسير المعتزلة إبراز الجوانب التي أبدع فيها هــؤلاء بخاصــة وقد عرف من بينهم طائفة من علماء البيان، وإنما كان ديدنهم الاشتغال بالمسائل العقدية التي خالف فيها أهل الاعتزال جمهور أهل السنة .

الصـــوفية ..، ووصـــل الأمـــر أن وجدنا المستشرقين يحتفلون حتى بالكـــتابات المعاصرة التي سارت في نفس الاتجاه، وغير خاف على المتتبع للموضوع طريقة استقبالهم لأطروحة د. محمد أحمد خلف الله عن " الفن القصصي في القرآن " ..

المطلب الثالث : نقد المستشرقين لأمهات التفاسير عند أهل السنة

منذ بداية القرن العشرين لم تدخر الحركة الاستشراقية جهدا للطعن في هـــذه التفاسير، فعمد كليمان هوار ت ١٩٢٧م في مقالة نشرت بالجريدة الأسيوية ١٩٠٤م إلى ادعاء أن التفاسير تتشكل من تراث أهـــل الكتاب، وخلص في مقالته إلى القول : " أن مقاطع كثيرة من الطـــبري ... مرتبطة بمثلها في سفر التكوين الذي يعرض للروايات اليهوديـــة والنصرانية، وكان وهب بن منبه هو الطريق الذي انتقلت بواسطته هذه الآثار في نهاية القرن الأول الهجري [١]...".

بعد حوار وجدنا جولد تسيهر يتحامل على التفسير منذ عصر الصـــحابة رضـــي الله عنهم حتى إذا انتهى به الكلام إلى ابن جرير الطبري لم ير في " جامع البيان " أكثر من " موسوعة للإسرائيليات "، ذلك أن أبا جعفر – حسب تسيهر – " يتوسع كذلك في استخدام المصادر اليهودية الأصل، فيما يتصل بقصص الإسرائيليات، ولم يكن في ذلـــك لينال موافقة سلفه الذين سبقوه ...، بل إن كتابه أغزر

(1) C. Huart, Wahb ben monabbih… in Journal Asiatique, 10: Serie, Tome 4P: 350 .

الكنوز بالنصوص المنتشرة في الأوساط الإسلامية من مواد الإسرائيليات كذلك الأساطير النصرانية يرويها راجعا إلى وهب بن منبه " (١) .

وعند ظهور الطبعة الأولى من " الموسوعة الإسلامية " كانت حملة المستشرقين على التفسير في أوجها مما سمح لهم بالإعلان عن دعواهم بأن الأحاديث التي تضمنتها كتب التفسير كلها موضوعة .

قال كاراديفو : " وعلم التفسير قديم قد يرجع تاريخه إلى صدر الإسلام، ويروى أن ابن عباس ت ٦٨هـ كان حجة في التفسير، وقد نسبوا إليه تفسيرا. وتساءل النقاد المحدثون (جولد تسيهر ولانس وغيرهما) عن قيمة الأحاديث الواردة في هذه الكتب الجامعة، ولم يصلوا بعد إلى رأي يعززها كثيرا، والظاهر أن أغلب هذه الأحاديث موضوع إما لتقرير مسألة شرعية وإما لأغراض كلامية، وإما لمجرد التوضيح، بل قد يكون لمحض اللهو والتسلية. ويذهب النقاد المحدثون إلى أنه لا أمل في العثور في هذه التفاسير على أخبار صحيحة عن أسباب نزول القرآن وإذاعته في الناس " (٢) .

ولقد كان " جامع البيان " للطبري ت ٣١٠هـ أكثر كتب التفسير تعرضا للنقد عند المستشرقين حتى في السنوات الأخيرة حين نشر " بيير غودي " ترجمة فرنسية لما اعتُبِر " مختصر تفسير الطبري"

---

(١) جولد تسيهر، مذاهب التفسير ص ١١١، ١١٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة " تفسير " ج: ٥ ص ٣٤٧ .

عـــام ١٩٨٣م فإننا نقرأ في تقديم الكتاب " المطالب العاجلة " التي تـــلح عليها الدوائر الاستشراقية وتدعو لبحثها من خلال " الدراسة العـــلمية العصرية " لجامع البيان، ومن هذه المطالب " تحديد وضبط دور هذا الكتاب في تشكيل إرثوذكسية أهل السنة "[١] .

لكن الذي يمكن أن نخرج به من حملة المستشرقين على " جامع البيان " أمران :

الأول : أنهم رأوا في هذه الحملة جزءاً من " الواجب " الذي ترتب عـــليهم بســـبب موقفهم من تراث المبتدعة، فلكي يخلو المجال لهذا الـــتراث لابد من إبعاد مقابله الذي هو تفسير أئمة أهل السنة ومنه " جامع البيان " .

الأمر الثاني : أن جهل هؤلاء باللسان العربي جعل المعاصرين منهم لا يـــتوقفون عن ترديد كلام أسلافهم لعجزهم عن التعامل مع بقية التفاسير الأثرية المتداولة بين الناس اليوم .

المبحث الثالث : المنهج المقترح للتفسير عند المستشرقين

في منتصف القرن العشرين كثرت الكتابات الاستشراقية عن تفســـير القـــرآن، واشتهر من المستشرقين المحسوبين على الدراسات القـــرآنية الفرنســـي بلاشـــير والألماني بريترل، والإنجليزي أربري والأمريكي ذو الأصل الاسترالي جفري ...؛ ونظراً لوفرة ما نشره

---

(1) Commentaire du Coran Abrege traduit et annote par Pierre Gode P 10 Editions d'art, Paris 1983, ovec Preface de M. ARKOUN.

هــؤلاء وغيرهــم في مجال الدراسات القرآنية فقد خيل إليهم أنهم أصبحوا مؤهلين ليس للكتابة في اتجاهات التفسير ومناهجه فحسب، بل أيضاً في إمكانهم التصدي لتفسير القرآن نفسه .

ولإضفاء شكل من الموضوعية العلمية الكاذبة على مشروعهم للتفســير، وحــتى لايــتهموا بالخوض بآرائهم الكليلة وتصوراتهم المدخولــة في القــرآن وهــم دعاة " البحث العلمي المنهجي" فقد تضــافرت جهودهــم مــن أجل اقتراح منهج استشراقي للتفسير، وحــررت أصــول هذا المنهج من قبل المستشرق كلود كايو الذي نشــرها في الطبعة الإنجليزية للموسوعة الكونية، ويقوم هذا المنهج عــلى ثــلاث خطوات: **الأولى**: إعادة البحث في تاريخ المصحف الشــريف . **والــثانية**: إعادة تفسيره اعتماداً على ما يصطلح عليه بالعــلوم الإنسانية المعاصرة كما هي بالغرب . الخطوة **الثالثة**: القيام بدراسة نقدية لأمهات التفاسير التي يعتمدها المسلمون .

وللحقيقة لا يدري القارئ المسلم الذي له دراية بعلم التفسير وتاريخه كيف سينجز المستشرقون هذا المشروع؟ ومتى؟ ومن سيقوم بإنجازه والإشراف عليه؟ هذا دون أن نتساءل اليوم عن أسباب ذلك والغاية المقصودة منه ؟!

المطلب الأول: دعوة المستشرقين إلى توثيق النص القرآني

وهــذه هــي الخطوة الأولى في منهجهم المقترح، وتقتضي مراجعة تاريخ المصحف الشريف حيث يتطلعون بالدرجة الأولى إلى

مرحـــلة جمــع المصـــحف العـــثماني [(١)]، والذي يتتبع الكتابات الاستشـــراقية بخصـــوص هذا الموضوع لابد أن يستشف الغاية التي يرغـــبون الوصـــول إليها وهي تحديداً : إمكانية التصرف في القرآن الكـــريم حذفـــاً وزيادة وفي سبيل هذه الغاية اتجهت كتاباتهم كما لايخفى على أحد إلى الاهتمام بثلاث مجالات لازالوا " يبحثون فيها حتى أيامنا الراهنة :

الأول منها: تتبع مصادر القراءات الشاذة والمنكرة والاحتفال بها والعمل على نشرها ..

الـــثاني : بـــذل الجهد لدى بقايا مختلف طوائف الضلال من باطـــنية العصـــر الراهن، وجمع تراثهم وأضاليلهم التي يدعونها على المصحف، واهتم المستشرقون ببقايا الإسماعيلية - على الخصوص - في شمـــال الهند ولبنان وجبال العلويين قرب اللاذقية بسوريا حيث استقرت الطائفة النصيرية منهم [(٢)] .

---

(١) لإبراز موقفهم من المصحف الإمام يكون من الأفضل إيراد مقالة بلاشير عن الموضوع حيث قال: ((كان المنطلق مصحف أبي بكر فضموا إليه مقطوعات مبعثرة أو محفوظة غيـــباً فقط، وتم أخيراً إخراج مصحف رسمي قصد الخليفة إحلاله محل جميع المصاحف الخاصـــة، عـــلى أن هذه الرغبة في إحلال نص ثابت ظهرت بتدبير كاد يكون هتكاً للقدســـيات: وهو إتلاف جميع المصاحف التي سجل عليها الصحابة الوحي الذي جمع عن لسان محمد وفي حياته)) . بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه .. ص ٣١ .

(٢) اشـــتهر بتتبع فرق الباطنية المستشرق الفرنسي هنري كوربان، كما حاول جولـــد تسيهر – قبله – عبثاً أن يقف على شيء من ضلالات الباطنية وما ادعـــوه من زيادات على المصحف؛ وانظر مبحث: ((الزيادات على النص

المجال الثالث : تطلع المستشرقون من خلال هذا المشروع إلى إعادة تشكيل مصحف جديد يعتمد الترتيب النـــزولي حتى يتسنى لهم إدمـــاج مختـــلف الضلالات فيه، ورغم استحالة هذا العمل لانقطاع الرواية في شأن زمن نزول الكثير من مقاطع القرآن، فإن هذا الترتيب الـــنـــزولي استهوى - ولازال - الكثيرين ممن هفوا نفوسهم - التي غلبها التعصب - إلى إعادة تشكيل مصحف جديد للمسلمين !!!

أما الأسباب التي برر بها هؤلاء دعوتهم لمراجعة المصحف فهي :

أولاً: طـــريقة جمع المصحف على عهد عثمان رضي الله عنه حيث يريد المستشرقون بحث المنهج الذي اتبعه المسلمون للتفريق بين القـــراءات المـــتواترة والمشـــهورة وغيرها من القراءات الشاذة التي استبعدت من المصحف، ويدعي هؤلاء أن الفصل في هذه المسألة لم ينته بعد (١) .

ثانياً: أن المصحف العثماني الذي تلقاه المسلمون حتى اليوم لم يكـــن تدوينه كاملاً ، لذلك احتاج فيما بعد إلى آراء الفقهاء لبيان الناســـخ والمنســـوخ وذلـــك حرصا على بعض التشريعات التي لم يتضمنها المصحف كعقوبة الرجم (٢) .

= العثماني عند الشيعة » ومبحث « مصاحف كتبت في عهد عثمان باقية في عدة مواطن » ضمن مذاهب التفسير من ٢٩٤-٢٩٨ .

(1) C.Gilliot, L'exege du Coran in Ency. Universalis, Cor 6P: 547.

(2) C.Gilliot, L'exege du Coran, Ency. Uni. Cor 6.P 548 .et Voir: J.Burton, The Collection of The Quran, Cambridge 1977 .

ثالـــثاً: أنـــه يجب علينا أن ندرس القرآن باعتباره تراثاً أدبياً، وبـــناءً على ذلك يرى المستشرقون الاستفادة من مختلف المناهج التي طبقت على التوراة والأناجيل وذلك في مجال دراسة القرآن بعد أن صيروه جزءاً من التراث الأدبي للمسلمين [1].

وهذا المشروع الاستشراقي لمراجعة المصحف الشريف لايكاد يخفي غاياته وأهدافه، وهو لا يعدو كونه حلقة من سلسلة طويلة من المحـــاولات للتخلص من القرآن الكريم وإزلته من الوجود، ويأبى الله إلا أن يخلّد كتابه ويحفظه ولوكره المستشرقون .

المطلب الثاني: مطالبة المستشرقين بنقد التفاسير القديمة

وعملية النقد التي يطلبها هؤلاء لاتعني إطلاقاً تطبيق مناهج النقد عـــند أئمـــة الرواية على آثار التفسير،كما فعل بعض أعلام المفسرين وكـــثير مـــن محدثـــي المفسرين، كما أن هذا النقد لا يمكن أن يطال الاتجاهـــات المـــنحرفة التي شهدها تاريخ التفسير؛ بل إن المستشرقين لايهمهم بالدرجة الأولى سوى نقد أمهات التفاسير الأثرية التي صنفها أئمـــة عـــلماء أهل السنة، ثم بيان كيف أن علوم الإسناد لعبت دوراً أساســياً في تثبيت " أيديولوجية " أهل السنة عن طريق ربط الجماعة المسلمة بسلاسل من الرواة تنتهي إلى مختلف الأحاديث ... " وفي هذا الموضوع نجد المستشرق كلود تكايو قال : [2].

---

(1) Gilliot, Ibid P 548, et J. Wausbrough, Quranic Studies, Oxford-univ. Press, Oxford 1977 .

(٢) أجدني مضطراً لأن أسوق هذا النص رغم طوله حتى تتبين للقارىء حقيقة

" إن عمـــلية نقد مصنفات التفسير بالمأثور عند المسلمين يمكن أن تقودنا إلى الإسهام الإيجابي في مشروع إعادة تفسير القرآن، فأعلام المفسرين - في الواقع - هم أهم شاهد على الطريقة التي تشكلت بها الذاكـــرة الإسلامية المشتركة، إن تفسيراً أثرياً كتفسير الطبري نجده فضلاً عن شروحه الفلسفية والنحوية وشواهده الشعرية يجمع قدراً كـــبيراً من مرويات التفسير المنقولة بواسطة أكثر من خمس وثلاثين ألـــف سلســـلة رجال، وهذا المصنف يمدنا بالطريقة التي تنتقل بها المـــرويات (الأحاديث)؛ هذه الأخيرة التي عملت دائماً على تجديد التصـــورات الوجدانية، وفي هذه البوتقة فإن المفسر التقليدي ليس مجـــرد جامع للمرويات يكتفي بتسجيل ثم نقل تلك الأحاديث لمن يأتي من بعده، بل أنه يرتب الأحاديث ويرجح فيما بينها ويدلي برأيه فيها ويعطي لتلك المرويات دلالة في التصور الإسلامي العام؛ على أن هـــذه الدلالـــة يتم تأكيدها وإثباتها من قبل المفسر بواسطة سلاسل الرواة التي يضمن بها تماسك " أيديولوجية " الجماعة المؤمنة؛ ولجوء المفســـر إلى هذا النوع من الخطاب الذي يعتمد على إسناد الحديث يكشف لنا مختلف الإسقاطات التي وقعت في كتب التفسير، حيث كانت الرغبة متجهة لتكريس مرويات بعض الصحابة الذين خصتهم كـــتب الـــتراث بسير أسطورية مثل ابن عم محمد - صلى الله عليه

= موقف المستشرقين من أحاديث التفسير عامة ومن علم الإسناد بصفة خاصة، مع التنبيه إلى أن الكلام بين عريضتين أضفته لضرورات الترجمة .

وسلم - عبدالله بن عباس ت ٦٨هـ - رضي الله عنهما - على أن هذا النوع من الدراسة - التفسيرية - يتطلب منا أن نطرح من جديد السؤال عن العلاقة بين ماهو واقعي حقيقي وما كان من إبداع المخيلة، كما سبق أن طرح ذلك في مجال دراسة المجتمعات البدائية (الأنثروبولوجيا) والتاريخ الوسيط والقديم - بالغرب [1].

انطلاقاً من هذا الموقف الاستشراقي الذي لايكاد يخفي فساد طويته وخلفياته، يدرك الدارس الموضوعي أن الهدف النهائي من عملية نقد التفسير عند المستشرقين هو الطعن في جانب من السنة المشرفة (أحاديث التفسير) والنيل من عدالة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يفتح الباب على مصراعيه من أجل تبني هرطقات المبتدعة المنسوبة للتفسير، وهذا بحق هو جوهر الدراسة الاستشراقية للتفسير كما سيأتي توضيحه في المطلب اللاحق .

المطلب الثالث: تبني المستشرقين الدعوة لإعادة تفسير القرآن

تفسير القرآن علم له قواعده وآدابه وأصوله، ولايمكن أن نجد

---

(1) Gilliot, Les recherches contemrporaines, Ency. Vni, Cori. 6P: 548 .

أمـا مصطلح " الأيديولوجية " الوارد في النص فالمراد به في اللغات الغربية مجموع الأفكار والمعتقدات المرتبطة بحقبة أو بمجتمع؛ واشتهر المصطلح في الفكر الفلسفي المعاصر بأنه يعني " الفكر غير المطابق للواقع "؛ وعبارة " أيديولوجية الجماعة المؤمنة " في النص كناية عن " عقيدة السلف وأهل السنة " حسب المفهوم الغربي .

علماً من العلوم – سواء كان يهتم بالدين أو لاعلاقة له بموضوعه – يخرج عن هذا الأصل العام في المعارف الإنسانية قاطبة .

كما أنه لا يوجد مجال في هذه الدراسة للإلماح إلى أصول علم التفسير وقواعده، لذلك نكتفي بالتأكيد والتذكير بهذه الأصول التي تُطلب في مظانها المختلفة.

والحركة الاستشراقية المعاصرة حين أرادت الخوض في تفسير القرآن لم تكن تغفل هذا الموضوع(١) ، لكنها أرادت أن تتجاوزه ظهرياً عن طريق الالتواء على هذه الأصول العلمية بدعوى الاستفادة – بدلاً من ذلك – من معطيات العلوم الإنسانية بالغرب، وتبعاً لهذه الدعوى تأسس منهج تفسير القرآن عند المستشرقين ابتداء من منتصف القرن العشرين على هذه المعطيات التي سبق للدوائر العلمانية (والتيارات اللادينية) في الغرب أن أخضعت لها تراثها الديني المحرف.

" إن تطور الدراسات القرآنية بالغرب في أواسط القرن العشرين قد حدث تحت تأثير التقدم الملحوظ في تفسير (الكتاب المقدس) وتأثير النظريات الأدبية، إن أثر العلوم الإنسانية وبخاصة علم دراسة المجتمعات البدائية (الأنثروبولوجيا) وعلم تاريخ الأديان

(١) بخاصة حين نعلم أنها عمدت إلى نشر كتاب " الإتقان في علوم القرآن " وهو يتضمن في أبوابه مباحث عرضت لأصول التفسير، لكن يظهر أن وراء نشر هذا الكتاب مآرب أخرى سنعرض لها لاحقاً، وقد تم للمستشرقين نشر "الإتقان" خلال القرن التاسع عشر الميلادي .

بدأ ذلك الأثر يظهر في مجال تفسير القرآن بالغرب: مثل البحث عن دور الشعارات والرموز الدينية ودور الوجدان الديني ودور الأساطير المرتبطة بالدين ...، ويمكننا أن نميز بين اتجاهين حديثين ظهرا في ميدان التفسير: الأول اهتم بتاريخ المصحف وتكوينه وجمعه وتحريره. الاتجاه الثاني: اهتم بإعادة تفسير القرآن عن طريق الاستفادة من الآليات التي توفرها مختلف العلوم الإنسانية، كما يتمسك هذا الاتجاه أيضا بالدراسة النقدية لأمهات التفاسير القديمة، هذه الأخيرة التي تعتبر شاهداً على الطريقة التي تم بها التفاعل مع النص القرآني من أجل تشكيل الوجدان(التصور) الإسلامي في مراحل عدة من التاريخ، وهذا يعني أن الدراسة النقدية لهذه التفاسير تهدف إلى معرفة الطريقة التي تم بها تصور الإسلام، وكيف جاء هذا الدين، وأخيراً كيف تم تخيله في تصور المسلمين ووجداهم [(1)].

والذي يظهر من خلال هذا النص أن المعتقد الذي يسعى المستشرقون لأجل تكريسه من خلال منهجهم المقترح لإعادة تفسير كتاب الله ينبني على ما يلي :

أولاً : أن القرآن الكريم إنما هو مجرد تلفيق من مصادر عدة استقى منها محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء به أمته، وفي بحث المستشرقين عن الكيفية التي جاء بها هذا الكتاب ومصدره تشعبت

(1) Gilliot, les recherches contemporaines, in Ency. Uni. Cor 6. P 547 .

بهم الأراجيف و لم يتفقوا على مصدر بعينه [(١)] .

ثانيــاً: أن أحكــام القرآن إنما هي مجموعة من التشريعات أدرجها فقهاء الإسلام ضمن تفاسيرهم دون أن تكون لها علاقة به، ومــن ثم وجــد ذلك التصور الذي ينظر إلى دلالة الآيات على أنها أحكــام ملزمة، وهي في التصور الاستشراقي غريبة عن القرآن كما ظهــر ذلك في كتابات جوزيف شاخت ت ١٩٦٩ م الذي أنفق عمره لهذه الغاية [(٢)] .

ثالــثاً: أن ما يعتقده المسلمون ويتصورونه بخصوص موضوع القرآن وتفسيره إنما تم تكريسه بواسطة تلك الأحاديث المسندة التي تنتهي إلى طائفة من الصحابة الذين اختلقت لكل واحد منهم سيرة أسطورية تسمو به في نظر المسلمين .

والكــتابات الاستشــراقية عن التفسير تريد أن تسقط عدالة الصحابة رضي الله عنهم حتى يسهل عليها الطعن في إسناد أحاديث التفســير، كما تبحث - عبثاً - عن وسيلة لقطع الصلة بين القرآن وأحكامه، هذا - بطبيعة الحال - بعد إنجاز الخطوة الأولى التي هي إعادة النظر في تشكيل وجمع المصحف نفسه !!!

---

(١) سبق أن جمعت مختلف أراجيفهم في الموضوع ضمن دراسة توثيقية يسر الله نشرها قريباً .

(٢) انظر: رسالته عن " الشريعة الإسلامية " ضمن " تراث الإسلام " ص ١٤٤ ج: ٢ منشورات سلسلة " عالم المعرفة " الكويت، الطبعة الثانية ١٩٨٨ .

غير أن الذي يمكن أن يستغربه القارئ المتتبع هو ذلك الموقف الاستشـــراقي المزدوج من تراث طوائف المبتدعة المنسوب زيفاً إلى التفسير :

فمـــن جهـــة لا نكاد نجد هذا التراث يوضع على محك النقد الاستشراقي مع أمهات كتب العلم التي يتجرأ هؤلاء على الكلام فيها .

ومـــن جهـــة ثانيـــة لا يخفـــى على أحد احتفال الكثير من المستشرقين بتراث هؤلاء المبتدعة وبحثهم عنه وسعيهم الدؤوب من أجل إحيائه ونشره !!!

المبحث الرابع: تقييم كتابات المستشرقين عن التفسير

في مجال تقييم هذه الكتابات سيكون من المفيد محاولة استقراء مختـــلف المصادر التي يعتمدها المستشرقون ويؤسسون على معطياتها آراءهـــم واستنتاجاتهم، كما يدخل ضمن عملية التقييم البحث عن المميزات والخصائص التي انطبعت بها هذه الكتابات، وإبراز مميزات الكتابات الاستشراقية عن التفسير من شأنه أن يساهم في بيان القيمة العلمية لدراسات المستشرقين في الموضوع .

على أنه أياًّ كانت مصادر الدراسات القرآنية عند المستشرقين فـــإن الحقيقة الموضوعية لابد أن تظهر ما لم تحجبها ذاتية المستشرق، والمســـألة الـــتي لا يمكن إغفالها في هذا المجال هي أن الخلفية الدينية - وأحياناً التعصب - ظل ذلك حاجزاً يحول بين مختلف المستشرقين وبين البحث العلمي الموضوعي المتعلق بالقرآن وتفسيره .

المطلب الأول: مصادر المستشرقين في الكتابة عن التفسير

تختلف المصادر التي اعتمدها المستشرقون للكتابة عن التفسير تــبعاً لعــدة عوامل منها تفرغهم « للدراسات القرآنية » وإلمامهم بمختــلف الــلغات الأوربية وأخيراً اطلاعهم على الآداب العربية؛ فالملاحظ أن أولئك الذين يكتبون في مختلف العلوم الإسلامية يطغى عليهم اختصار مؤلفات سابقيهم؛ أما مسألة الإلمام باللغات الأوربية فيظهــر أثــره بالنظر إلى أن إصدارات الحركة الاستشراقية المتصلة بالتفســير موزعة بين تآليف مكتوبة بالألمانية والفرنسية والإنجليزية، وترجمة هذه التآليف من إحدى هذه اللغات إلى أخرى قليل مقارنة بنشاط الترجمة في مختلف المعارف بالغرب..؛ وأما العامل الأخير وهو الاطــلاع على الآداب العربية، فالمقصود بذلك ليس الإلمام بها، إذ الغالبية العظمى من المستشرقين لا يتكلمون العربية أصلاً، وقلة منهم يفهمون ما يقال بالعربية بصعوبة، وحتى أكثرية أولئك الذين نشأوا وعاشــوا في الــبلاد العربية لا تخفى الصعوبة التي تعترضهم حين يتعاملون مع الكتاب العربي .

وحــين نــبحث في المصــادر المعتمدة لدراسة التفسير عند المستشرقين نجد بأن أكثرها مراجع وسيطة تتشكل بالأساس من تلك المؤلفــات الــتي نشرها المستشرقون أنفسهم، وقد يحيل بعضهم إلى بعض مصادر ومراجع عربية .

تــبعاً لذلك فالبحث في مصادر كتابات عن التفسير يتطلب

تقسيم هذه الكتابات إلى قسمين :

الأول منها: كتابات اعتمد مؤلفها الإحالة على مصادر ومراجع بالعربية لم تترجم إلى اللغات الأوربية، وهي قليلة نسبياً، من هذه الكتابات الاستشراقية ((مذاهب التفسير الإسلامي)) المنشور في ليدن ١٩٢٠م؛ ومنها أيضاً مادة ((قرآن)) ضمن الموسوعة الإسلامية، الطبعة الثانية مكتبة بريل ليدن ١٩٨١م .

القسم الثاني: كتابات استشراقية اهتمت بالتفسير وكانت عالة على التراث الاستشراقي نفسه وهذا القسم هو الأكثر، وقد تجسد هذا القسم بخاصة في المادتين اللتين حررتا عن ((تاريخ التفسير)) وعن ((القرآن والدراسات المعاصرة)) ونشرتا ضمن الموسوعة الكونية طبعة ١٩٩٠م، حيث نجد لائحة مراجع المادة تتضمن عشرين مرجعاً، كلها بدون استثناء من كتابات المستشرقين أو تلامذهم بشتى اللغات الأوربية .

ولتقييم مدى استفادة القسم الأول من هذه الكتابات من المصادر العربية فإنه مما لا يخفى على المتبع أن هذه الاستفادة كانت محكومة بتوجهات المستشرقين وتصوراهم الخاصة للقرآن وتفسيره؛ فجولد تسيهر – مثلاً – في كلامه عن القراءات القرآنية ضمن الفصل الذي خصصه ((للمرحلة الأولى للتفسير)) نجده يحيل في توثيق القراءات إلى الكشاف للزمخشري [1]، وهذا الكتاب رغم أنه من كتب التفسير

---

(١) انظر: على سبيل المثال: مذاهب التفسير ص ١٤هـ ١، ص٢١هـ ٣، ص

إلا أنـــه ليس مصدراً للقراءات، وقد نجد الزمخشري يتعصب للقراءة المـــردودة والشاذة لا لشيء إلا لأنها تنصر مذهبه، فالمستشرق يستغل هذا الجانب؛ ولهذا الغرض أيضاً وجدنا المستشرقين ينشرون ((شواذ القراءات)) لابن خالويه و ((كتاب المصاحف)) لابن أبي داود .

وفي هذا السياق أيضاً وجدناهم يختارون من كتب علوم القرآن ((الإتقـــان)) للسيوطي حيث نشره النمساوي شبرنجر ت ١٨٩٣م، وكان المستشرقون يستندون في مطاعنهم إلى تلك الروايات الواهية التي ذكرها السيوطي [١] .

نخـــلص من خلال تتبع الأمثلة السابقة إلى أن رجوع بعض المستشرقين للمصادر العربية للتفسير كان محكوماً بتصوراتهم الخاصة عـــن القرآن، فلم تفدهم هذه المصادر من الناحية المعرفية في شيء، وأحيانـــا نجدهم يتعمدون الكذب وينسبونه لهذه الكتب، وقد وجد مـــن هؤلاء المستشرقين من لم يعرف العربية ولم يرجع إلى المصادر، لكـــنه وجـــد بين يديه ركاماً من كتابات أسلافه، فاعتمده وسعى

= ٢٣ هـــ ١، ص ٢٤هـــ ٢ .

(١) نقل عن الشيخ محمد زاهد الكوثري ((أنه كان يدرس علوم القرآن لطلبة التفســير بجامعـــة استانبول بالاستانة، وكان يعنى بالاطلاع على ما يكتبه المستشـــرقون لـــيرد عـــليه وينبه إليه الطلبة، فكان يجد كثيراً من مطاعنهم يستندون فيها إلى تلك الآراء الشاذة، والروايات الساقطة في كتاب الإتقان، وكـــان هذا من أسباب حملته الشديدة على مؤلفه)). وانظر في الموضوع: مقدمـــة ((الإحســـان في تعقـــب الإتقان للسيوطي)) تأليف عبدالله بن الصديق، نشر دار الأنصار القاهرة .

لأجل ترويجه بأخطائه المعرفية والمنهجية المتعمدة [1] .

المطلب الثاني: مميزات كتابات المستشرقين عن التفسير

انطبعت هذه الكتابات بمجموعة من المميزات ناتجة بالخصوص عن سببين اثنين:

الأول: يتعلق بالمنطلقات المنهجية التي ابتدأ منها اهتمام المستشرق بالتفسير وتشكل تبعا لها تصوره عن القرآن وتفسيره لهذا الكتاب .

السبب الثاني: الأغراض والغايات التي لأجلها وقع هذا الاهتمام، فهي ليست بالضرورة أغراض دعوية أو غايات هدائية ..

اعتباراً لتلك المنطلقات والأغراض وجدنا كتابات المستشرقين عن التفسير تنحو دائماً في اتجاه واحد وإن اختلفت سبلها .

ففي بداية القرن العشرين اتجه المستشرقون إلى تأصيل الاتجاهات المنحرفة في التفسير ضمن تاريخ هذا العلم باعتبارها إسهامات قديمة سابقة حتى يفتحوا الطريق لإضافة هرطقاتهم أيضاً لعلم التفسير؛ ولا زال بعضهم يسعى لهذا التأصيل.

وفي منتصف هذا القرن – لما فشلت المحاولة الأولى – اتجهت جهود المستشرقين لتبني بدعة مستحدثة وهي الدعوة إلى إعادة تفسير القرآن اعتمادا على معطيات العلوم الإنسانية بالغرب بخاصة ((علم

---

(١) ويمكن للمتتبع أن يلاحظ كيف ظلت أغلاط تسيهر في مجال القراءات – التي لم يعرفها – تتكرر في مختلف كتابات المستشرقين، ونفس الشيء نصادفه بخصوص تقسيم اتجاهات التفسير بالرأي حيث لازال كلام تسيهر يتردد في الإنشائيات الاستشراقية .

دراسة المجتمعات البدائية)) [١] .

وحين نرجع لمختلف كتاباتهم عن موضوع التفسير نجدها قد انطبعت بمجموعة من المميزات ظهرت بجلاء رغم تمسك بعضهم بإضفاء الطابع العلمي المجرد على هذه الكتابات .

١– الميزة الأولى لكتابات المستشرقين عن التفسير هي ((الانتقائية))، والأصل أن الدراسات والبحوث الإنسانية جمعاء تعتمد على التتبع ثم الجمع ثم الاستقراء واستخلاص النتائج؛ أما كتابات المستشرقين عن التفسير فهي تنطلق من تصور اقتنع به المستشرق أو أراده ثم يسعى جاهداً من أجل تقريره وتدعيمه حتى يصبح ((حقيقة علمية))، وفي سعيه لذلك يلجأ لأي معطيات يقع عليها حتى ولو كانت لا أصل لها [٢] .

---

(١) " علم دراسة المجتمعات البدائية " أو (الأنثروبولوجيا) موضوع بحثه أساطير الجماعات البشرية التي لم تؤثر فيها التغييرات الاقتصادية والاجتماعية الحديثة، ويريد المستشرقون وأتباعهم إسقاط هذا " العلم " على مجال الدراسات القرآنية وبالخصوص " دراسة " موضوعات مثل: قصص الأنبياء، وتاريخ الأقوام السابقين الذين ورد الحديث عنهم في القرآن .

(٢) في كلام المستشرق "ويلتش" عن الوحي ونزول القرآن، ادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد هجرته كان يفتش بنشاط عن تعاليم التوراة لأخذها من يهود يثرب، ودليله على ذلك أن القرآن تكلم عن إخفاء اليهود للتوراة لكن بعضه وصل إليه وإلى صحابته، والآية التي قصدها "ويلتش" وفهمها حسب هواه هي قوله تعالى: **﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾** سورة الأنعام الآية ٩١.

وانظر: A. T. Welch, Al KURAN, in encyclopedie de I'slam

٢- الميــزة الــثانية ((الذاتية))، ومردها إلى تأثير الخلفية الدينية للمستشـــرق في كـــتاباته، فمعتقد المستشرقين أن القرآن من تأليف محمـــد صـــلى الله عليه وسلم، فيكتبون عنه باعتباره أثراً من الآثار الأدبيـــة العربية، ولو وقع أن نظر المستشرق في القرآن بعد أن تجرد من خلفيته – اليهودية أو النصرانية – لحصل له مثل ما كان يحدث لأهـــل مكة الذين لم يعمهم التعصب زمن النبوة، فقد كان تجردهم يبصرهم بحقيقة القرآن، هذا بطبيعة الحال مع اعتبار جهل المستشرقين باللسان العربي المبين [١].

٣- الميـــزة الثالـــثة ((السطحية)) أي فقدان أي عمق علمي أو

= Tome 5P: 404 .

(١) لتصور مدى هذا الجهل أورد مثالاً لذلك وهو المستشرق بلاشير الذي وفد مـــع عائلـــته إلى المغرب عام ١٩١٥، وعمره خمس عشرة سنة، وفيه أنهى الثانوية ثم حصل على الإجازة في اللغة العربية من جامعة الجزائر، وتدرج في ســـلك التعليم بالمغرب حتى ١٩٣٥م. هذا المستشرق المتخصص في العربية الذي عاش بين أهل المغرب سنين عديدة يقلدهم حتى في الجلباب التقليدي.. نجـــده يقول عن عربية القرآن : ((وقلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كـــتاباً بلـــبل بقـــراءته دأبـــنا الفكـــري أكثر مما فعله القرآن، فإنا معشر الاختصاصيين في الإسلاميات، حتى ولو بذلنا جهداً وافراً لبعث الجو الذي نمت فيه دعوة محمد، نكتشف تنافراً يتعذر دفعه بين هذا الجو وبين الشكل الذي اتخذه المصحف: فأمام هذا النص الشائك بصعوباته، الكثير الغموض، والمدهـــش بأســـلوبه الإيجازي الذي يغلب عليه التلميح، نتوقف ملتمسين الفكرة الرئيسية التي تصل فيما بينها بمنطق كامل قصصاً وشروحات يصعب الكشف عن ترابطها..)) بلاشير، القرآن: نزوله وتدوينه.. ص ٤١ .

معـــرفي، وقد برزت هذه السطحية على مستوى مضمون كتابات المستشرقين عن التفسير وعلى مستوى المنهج .

فعـــلى مستوى المضمون لا تكاد هذه الكتابات تخفى فقرها المعرفي، وتجاهلها لبدهيات العلم هذا دون الكلام عن إهمالها الرجوع إلى المصادر المتراكمة باللغة العربية.

أمـــا عـــلى مستوى المنهج فقد كرس هذه السطحية حرص المستشـــرقين على ((دراسة)) تفسير القرآن بمناهج غريبة عن هذا العـــلم استعاروها من خارج التراث العلمي الذي يهتمون به، فكان مـــن نتـــيجة ذلك أنهم لم يستوعبوا علم التفسير و لم يستطيعوا أن يفهموا مناهج وطرق المفسرين [١] .

٤- الميـــزة الـــرابعة ((الانقطاع)) ويظهر ذلك من خلال مختلف المشـــروعات التي يطرحها المستشرق (أو لفيف من المستشرقين)؛ فرغم اتفاقهم في المرحلة الأخيرة على إعادة تفسير القرآن اعتماداً على مختـــلف العلوم الإنسانية، إلا أن السبل تشعبت بهم بعد ذلك بسبب

---

(١) لذلك لم يكن غريباً أن يتحامل هؤلاء على علم الإسناد، فاستيعاب مناهج التفسير يقتضي الوقوف في مجمل القرآن عند الآثار ومادلت عليه، وأعمال الـــرأي الشرعي في المشكل من الآيات، ومعرفة الآثار، لابد فيه من اعتماد الأسانيد المتصلة، ومن أعاب الأسانيد فهو ضرورة يطعن في رجال الحديث الذيـــن هم شهودنا حتى الصحابة رضي الله عنهم الذين سمعوا الخبر، وهذه الـــبدعة سببها: محاولة المستشرقين هدم علوم الرواية بخاصة وأن علم الجرح والتعديل بقواعده المعروفة أهم علم يختص بالرواية عرفته الإنسانية .

تعـــدد هذه العلوم واختلاف مجالاتها ثم توسعها الكبير خلال العقود الأخـــيرة [1]، واعتـــباراً لهـــذا التوسع فإن الكلام عن تفسير يعتمد معطيات هذه العلوم هو ضرب من الخيال ومحاولة متعمدة لدفع تفسير القرآن إلى فضاء التيه حتى يغدو كتاب الله محتملاً لكل ضلال .

وقـــد تجلت ميزة ((الانقطاع)) بوضوح من خلال مختلف كـــتابات المستشـــرقين، فلو قدر لنا اليوم أن نجمع مختلف ما نشره هؤلاء عن الموضوع فسنجد أنفسنا أمام سديم من ((الإنشائيات)) الـــتي لا يجمـــع بيـــنها شيء، خلا تلك الدعوة إلى إعادة النظر في التفســـير.. هذا بإجمال أهم ما ميز كتابات المستشرقين عن التفسير، وإذا نظـــرنا إليـــه بعين الإنصاف ألفينا المميزات السابقة نقائص أو سلبيات أثرت على القيمة العلمية لهذه الكتابات، فكان حرياً بها تبعاً لذلك أن تظل محصورة في دوائر وأكاديميات المستشرقين وأذنابهم من المسلمين الذين لم نتعرض لهم؛ واليوم لا نصادف في العالم الإسلامي أثراً لتلك الدعوة التي انطلقت قبل نصف قرن من أجل تفسير يعتمد

---

(١) لازالـــت " العلوم الإنسانية " تثير الكثير من الجدل والمناقشات حول ماهية هذه العلوم وميدانها ومناهجها، ولعل ذلك راجع إلى جنوح المشتغلين بها – في أبحـــاثهم – إلى الجدل والافتراضات الفضفاضة والتعميمات، هذا فضلاً عـــن عـــدم اهتمامهم بالمسائل المنهجية وبخاصة المناهج التجريبية المتبعة في العلوم الطبيعية بالذات؛ وانظر في الموضوع: د. جابر الحديثي، "أزمة العلوم الإنســـانية" ضـــمن دورية " الفكر العربي" عدد ٣٧،٣٨، السنة السادسة ١٩٨٥م ص ١٠٩-١٣٧ .

معطيـــات علوم الإنسان بالغرب اللهم بعض النتف في تلك الرسائل الجامعية الموبؤة التي تم احتضانها بأكاديميات وجامعات المستشرقين في الغرب .

المطلب الثالث: أسباب انحراف كتابات المستشرقين

درج العلماء على تقسيم مختلف ما ألف عن تفسير القرآن إلى إسهامات مقبولة وهي المنضبطة علمياً، وكتابات منحرفة وهي التي تكون ناتجة عن جهل بالعلم أو هادفة إلى تقرير مذهب فاسد، وهذا التقسيم إنما وضعوه حين أرادوا الكلام عن اتجاهات التفسير وبدعه، والهدف منه تمييز تراث المبتدعة المنسوب إلى علم تفسير القرآن عن التفســير العــلمية الســليمة المنهج، فاختصت مؤلفات أهل البدع بمصــطلح ((التفسير بالرأي المذموم)) كما عرفت تفاسير غيرهم بمصطلح ((التفسير بالرأي المحمود)) وهذا عندما يكون الكلام عن التفسير بالاجتهاد وإعمال العقل ..

وحين نرجع إلى كتابات المستشرقين عن التفسير وعن معالم منهجه اليوم كما يتصورون ذلك، نصادف بأنهم لا يكادون يختلفون في مسلكهم ودعوتهم عن نزغات أهل البدع قديماً، فقد قصدوا إلى التسور على العلم بغية هدمه وركبوا لتلك الغاية كل صعب وذلول؛ وإذا كان العلماء قديماً قد حددوا أسباب انحراف تفسير أهل البدع، فإن انحراف كتابات المستشرقين عن التفسير في العصر الراهن يرجع إلى عدة أسباب يمكن إجمالها في الآتي :

السـبب الأول: فسـاد المعتقد، وهذا يلتقون فيه مع أسلافهم من المبـتدعة قديمـاً، ومرد هذا الفساد تعصبهم لمللهم ونحلهم؛ لذلك عميـت بصائرهم عن إدراك دلائل ربانية القرآن، من ثم نظروا إلى هذا الكتاب باعتباره جزءاً من تراث الأمة التي تدين به لربها ..

السـبب الـثاني: سوء القصد، فالمعروف لدى طالب علم التفسير ودارسـه أن مـن أهم الآداب التي يجب توفرها في المفسر والدارس لكـتاب الله ((سلامة القصد))[1] ، وأهم أسباب ضلال المبتدعة قديمـاً هو أنهم أرادوا تأصيل نزعاتهم من خلال التأليف في التفسير وتضـمينه تلك الأهواء فضلو وأضلوا، والمستشرقون حديثاً ولجوا ميـدان التفسـير ولم يبـتغوا الحق، بل منهم من قصد إلى إضفاء تصـورات نحلته عليه، ومنهم من قصد هدم هذا العلم أصلاً بشتى الوسائل وهذا مما لا يخفى في كتبهم .

السبب الثالث: فوضى المنهج، يعرف المنهج اختصاراً بأنه الطريقة التي يسـلكها الدارس والباحث من أجل الوصول إلى حقيقة علمية سواء كـانت تلك الطريقة تعتمد الاستقراء والتتبع أو كانت تعتمد التحليل والـتقويم أو الـتجريب والملاحظة...؛ وغياب المنهج في أي مجال من مجـالات الـبحث يـؤدي إلى ما يمكن أن نصطلح عليه ((بفوضى

---

(١) وفي ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء: ٤٥، ٤٦: الآيتان ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ .

المناهج))، وقد أدت هذه الفوضى في مجال ((أصول الدين)) قديماً إلى ظهور شتى الفرق والطوائف المتنافرة، كما أدت هذه الفوضى في مجال التفسير بالرأي إلى ظهور مختلف ((التفاسير المذهبية)) ..

وظهرت هذه الفوضى في كتابات المستشرقين عن التفسير لما اعتبروا القرآن تراثاً أدبياً تجرب عليه كل المناهج التي عرفتها البيئة الغربية، سواء كانت مناهج مادية أو وضعية، وسواء كان مجالها دراسة الأساطير أو دراسة الوقائع، وسواء كانت مناهج تاريخية أو كانت فلسفية.. لينتهي المطاف بالمستشرقين إلى فتح مجال التفسير لشتى ((المناهج)) التي عرفت في ميدان العلوم الإنسانية بالغرب بتناقضاها وتضاربها وإخفاقاها أيضاً [1].

السبب الرابع: الجهل بالعلم، المعارف البشرية جميعها يتوقف استيعابها على الإحاطة بكلياها وفروعها، ولا يوجد فرع منها يمكن تحصيله بدون طلب، والحرص على الطلب مع المواظبة والاستمرار يورث العلم، ثم إن جميع العلوم لها أصول وقواعد؛ والطريق الذي سلكه العلماء كيفما كانوا هو أولاً التحصيل من مصادره ومظانه ثم الانضباط لقواعد العلم وأصوله ..

---

(١) يمكن الرجوع بخصوص هذا الموضوع إلى :
- اديث كيروزيل، عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، الطبعة الأولى بغداد ١٩٨٥م، الثانية الدار البيضاء ١٩٨٦م .
- جون ستروك، البنيوية وما بعدها، ضمن سلسلة "عالم المعرفة" عدد ٢٠٦ فبراير ١٩٩٦م .

فـــالذي لم يســـلك طريق التحصيل أولاً جاهل ولو ادعى خلاف ذلك .

والذي لا ينضبط لقواعد العلم وأصوله وآدابه مخالف لمقتضى العلم – وإن سبق له تحصيل – فلا يؤمن أن يخلد إلى هواه (١) .

وحـــين نرجع إلى كتابات المستشرقين عن التفسير نجد بأنه اجتمع فيها الجهل بالتفسير والجهل بما يقتضيه هذا العلم، أما الأول فمظهـــره تجـــلى من خلال ترديد الأجيال المتعاقبة من المستشرقين لـــتراث متقدميهم وأسلافهم فقط، وأما الجهل بمقتضى العلم فأول مظاهـــره عدم اكتراثهم بآداب وقواعد علم التفسير حيث تقرر في أوســـاطهم منذ عقود أن تفسير كتاب الله يمكن أن يزاوله حتى من يكفر بربانية القرآن أو من يبحث عن ((دلائل)) نسبته إلى البشر..

الســـبب الخـــامس: الجهـــل باللغة العربية وعلومها وآدابها، إذ أن مشـــاهيرهم لا يحسنون الحديث بالعربية ولا يستطيعون الحوار بهذه اللغة ولا استظهار شيء مكتوب بها، رغم أنهم عاشوا بين المتكلمين بالعـــربية خـــلال عهد الاستعمار (٢)، أما غير هؤلاء المشاهير فإن

---

(١) انظـــر كلامـــاً نفيساً للشاطبي عن هذه القاعدة ضمن المباحث التي خصها للفـــتيا في كتاب الموافقات ج ٤ ص١٤٥،١٤٤، دار الفكر بيروت بتعليق الشيخ محمد حسنين مخلوف .

(٢) يصدق هذا على موريس ديمومبين تـــ١٩٥٧م، وقد عاش طويلاً بالجزائر، وعـــلى غاستوني فييت تـــ ١٩٧١م، وقد قضى سنوات بالقاهرة..؛ ونجد أســـتاذ المستشرقين الفرنسيين سلفستر دوساسي تـــ١٩٣٨م، يصرح عندما

القطيعـــة بينهم وبين اللسان العربي لا جدال فيها إطلاقاً، ذلك أن مـــتأخري المستشـــرقين تم تكوينهم بلغاهم الأصلية و لم ينتقلوا أو يعيشوا في وسط الناطقين بالعربية ..

وأن مـــن يراجع نظم التعليم العالي في الغرب يصادف ذلك الإصــــرار على محاربة جميع أشكال المنافسة للغة الوطنية أو القومية، ففـــي فرنسا – على سبيل المثال لا الحصر – يفرض على الباحث المتخصـــص في الآداب الإنجـــليزية أو الأسبانية أو غيرهما أن يحرر ويـــناقش أطروحـــته بالفرنسية رغم مجافاة ذلك للبحث العلمي(١)، ونفـــس الشيء يفرض على المتخصص في فرع من فروع الدراسات الشــــرقية، ويـــتأزم أمر الباحث حين يكون موضوعه ((تحقيق)) مخطوط معين..؛ والخلاصة التي نصل إليها أن تكوين المستشرق مهما بـــلغ لا يرفع عنه الجهل باللغة العربية التي دونت بها كتب التفسير، ومـــا دام حالـــه كذلـــك فلن يصل إلى مرحلة الاستفادة من هذه المصادر، فيظل تبعاً لذلك متوقفاً عند تكرار تلك ((الإنشائيات))

= سئل عمن علمه اللغة العربية قائلاً: " تريد أن تعلم إن كان لي بعض الشيوخ الذين تعلمت عليهم العربية ؟ وإني لأستطيع أن أؤكد لك أن معلمي الوحيد كان الكتاب، وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية، ولا حتى أن أفهم ما يقال بهذه اللغة، إذ لم تتح لي الفرصة في شبابي للتكلم بالعربية، ولا حتى الاستماع إليها ". د. المقداد، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا ص ١٤٩ .

(١) يمكـــن الرجوع بخصوص نظام الدراسات العليا بفرنسا إلى القانون المنشور بأحد أعداد "الجريدة الرسمية" الفرنسية في يوليوز ١٩٨٤م .

التي يجدها مكتوبة بلغة يفهمها .

خاتمة الدراسة:

كانت المباحث السابقة عرضاً تحليلياً وتقويمياً لكتابات المستشرقين عن موضوع تفسير القرآن، وقد كان من أولويات هذه الدراسة الاعتماد على مانشره المستشرقون عن التفسير في ((موسوعاتهم العلمية)) بالدرجة الأولى، نظراً للقيمة التي أعطيت لهذه الموسوعات في الشرق والغرب على السواء .

أما النتائج التي يمكن أن نخلص إليها من تتبع مطالب ومباحث الدراسة فهي:

أولاً: أن الكتابات الاستشراقية عن التفسير حاولت في أول أمرها تأصيل تراث المبتدعة المنسوب لعلم التفسير، وذلك بجعله لوناً من ألوان هذا العلم؛ فلما ظهرت مختلف الدراسات المعاصرة بالعالم الإسلامي وبينت حقيقة هذا التراث، وكشفت عواره..، غير أكثر المستشرقين خطتهم، وظهرت في محافلهم دعوى ظنوها جديدة .

ثانياً: أن دعوة المستشرقين لإعادة النظر في التفسير قدموها في صياغة نظرية غير منضبطة حتى تتسع لهم ولمن سلك طريقهم من الخائضين في تفسير كتاب الله بمحض الهوى .

ثالثاً: أن " الطريقة " التي دعا المستشرقون لنهجها في التفسير ظلت طيلة عقود من الزمن مجرد نظرية لم يستطيعوا هم ولا غيرهم تطبيقها، وكل ما نجد من كتاباتهم في التفسير مجرد " مقالات " في

التفسـير الموضـوعي يكون فيها المستشرق عالة تماماً على " معجم آيات القرآن " .

رابعـاً: أن دعـوة المستشـرقين لاعتماد معطيات العلوم الإنسانية بالغـرب في مجـال تفسير القرآن أملاها عليهم واقع عجزهم عن الـتعامل مـع المصادر بسبب الجهل باللسان، بالإضافة إلى سعيهم الحثيث لهدم علم التفسير .

وخـتاماً نسأل الله السداد في القول والعمل والله تعالى أعلم وأحكم .